11

علماء ومفكرون معاصرون

لمحات من حياتهم، وتعريف بمؤلفاتهم

محمد حسين هيكل

الأَدِيبُ السِّيَاسِيُّ المؤَرِّخُ وَرَائِدُ الكِتَابَةِ في السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ

تأليف

الدكتور محمد رجب البيومي

دار القلم

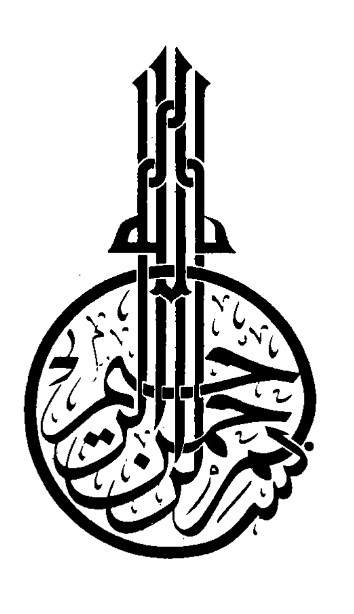
دمشق

محمد حسين هيكل

١٣٠٥ - ١٣٧٦هـ
١٨٨٨ - ١٩٥٦م

الأَدِيْبُ السِّياسِيُّ المؤَرِّخُ
وَرائدُ الكِتَابَةِ في السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ

بقلم
الدكتور محمد رجب البيومي


بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

تُطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ١١٣ / ٦٥٠١

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

المقـدّمـة

أذكر أنّ الأستاذ المؤرخ الشهير (محمد شفيق غربال) تحدّث عن الدكتور (محمد حسين هيكل) حديثاً ضافياً في الكلمة التي ألقاها عنه في حفلة استقباله بمجمع اللغة العربية، إذ كان خلفاً له في مقعده بالمجمع، وقد نُشرت كلمتُه بالجزء الرابع عشر من (مجلة المجمع) الذي صدر في سنة ١٩٦٢م، وقد استغرقت أكثر من عشرين صفحة من القطع الكبير، تحدّث فيها عن مقالات الدكتور هيكل، ومؤلفاته الأدبيّة والتاريخيّة. ثم خصَّ مؤلفاته الإسلامية جميعها بستة أسطر قال فيها: «ومن القرّاء من يمدحُ تلك الكتب بما ليسَ فيها، هؤلاء يظنون إنّهم يرفعون مِنْ شأنها إذا زعموا أنّها تحقيق علمي، كما كان جمالُ العاطفة أحطَّ قدراً في نظرِهم من التحقيق العلمي».

ومعنى هذا الكلام أنّ كتب هيكل الإسلامية ليست من التحقيق العلميِّ في شيء. وإنّما هي تصوّر جمالَ العاطفة فقط! وأنا أعجبُ كيف مرّ هذا القولُ على الملأ من سامعيه، وهم أعضاء المجمع، دون أن يعقّبَ عليه معقّبٌ بما يكشف عُوارَه الفاضح، ولعلّهم جاملوه إذا لم يشاؤوا أن يصدموه في أول لقائه بتسرّعه العاجل.

وإذا كانت هذه الكتب ـ في رأيه ـ تخلو من التحقيق العلمي، وتعتمدُ على جمال العاطفة وحدَها، فلِمَ لم يكتب صفحةً واحدةً من الصفحات العشرين في توضيح ذلك. وقد تعرّض لكتاباتٍ لم تصل إلى مستوى هذه الكتب فأفاضَ في الحديث عنها!.

لقد قرأتُ هذ الكلام في حينه، وعوّلت على أن أنسفه نسفاً بالبراهين الدالّة. ولكني وجدتُ الرأي الأدبيَّ العام لايعير كلام الأستاذ محمد شفيق غربال التفاتاً، فما نقله أحدٌ في حديث عن الدكتور هيكل، مع كثرة ما كتب عنه من دراسات جامعية، ومؤلفات شخصيّة! وهنا تباطأتُ في الردّ، وقلت: كل آتٍ قريب.

ثم هاتفني أخي الأستاذ الجليل محمد علي دولة طالباً أن أكتبَ عن الدكتور هيكل كتاباً يحلّل اتجاهه الإسلامي في كتبه الذائعة تحليلاً يكشفُ عن الهدف والمرمى والأسلوب! فقلتُ: لقد آنَ أن أتحدّثَ عن الرجل، فلا مجالَ للإبطاء، وعدتُ إلى آثاره، ولم تكن بعيدةً عني، فأنا أعتادها على فترات متقاربة، لأُشبعَ رغبةً نفسيّةً في استجلاءِ هذه الصحائف الخالدة في التاريخ الإسلاميّ المجيد.

وقد تعمّدتُ أن أفسحَ القول في كتبه هذه، فأفيضَ في حديثه عن الرسول ﷺ وصحابته الأكرمين، وعن آرائه في القضايا الإسلامية، التي أثيرت في عصره، ولكنّ الاكتفاء بذلك لا يقدّم صورةً وافيةً عن الرّجل، لذلك رأيتُ أن أتحدّثَ عن مؤلفاته الأُخرى، وأعرضَ جهادهُ في الأدب، والصحافة، والقصّة، والنقد، بما يعطي القارئ فكرةً ـ ولو موجزةً ـ عن هذا الباحث العملاق.

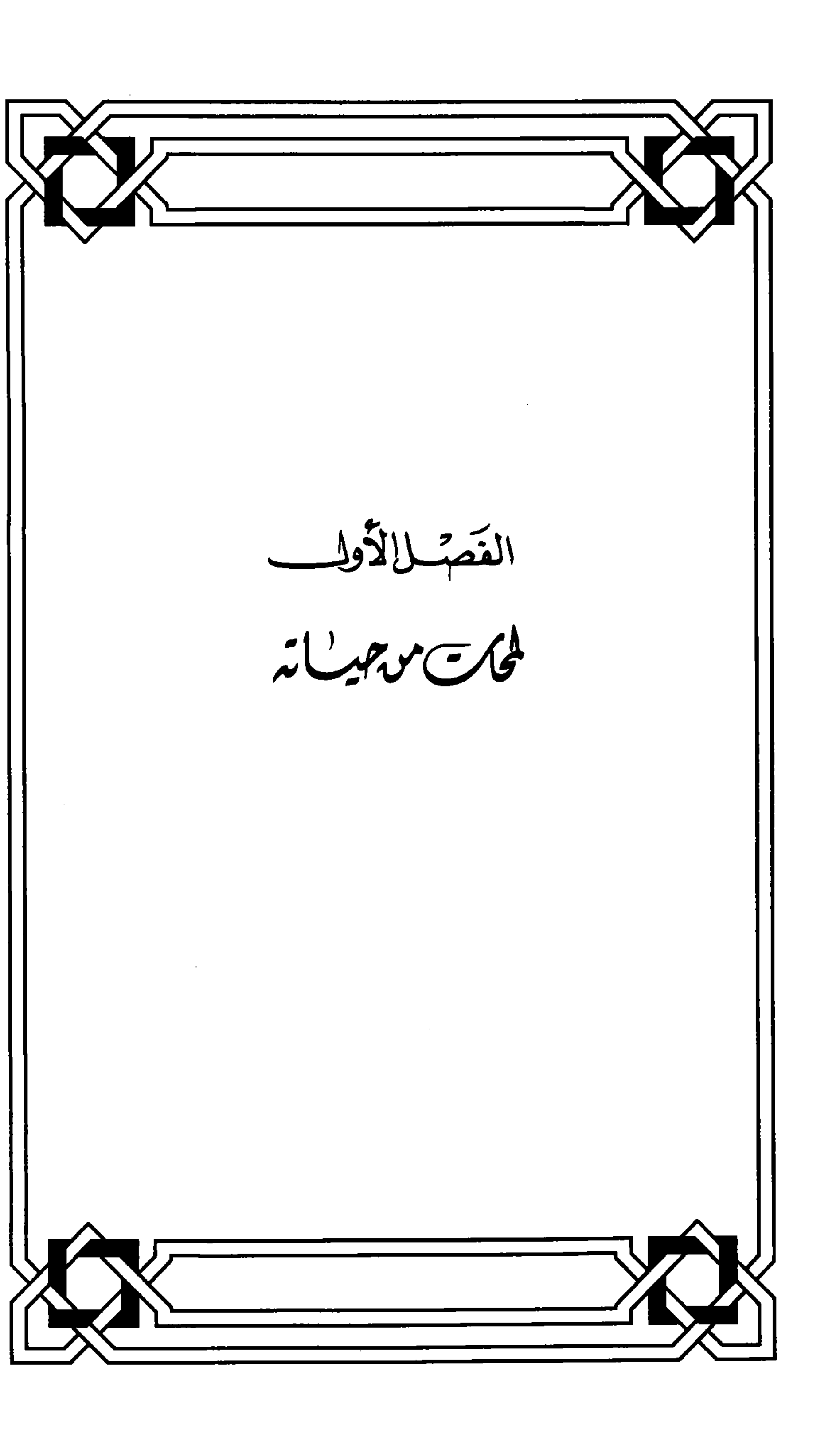
كما أشرتُ إلى تطوره الفكري في حياته السعيدة، حيثُ انتقل من اتجاهٍ إلى اتجاهٍ، وهذا ممّا يُحمد له، لأن طالبَ الحقيقة لا يجدها قريبةً منه دائماً، بل لا بدَّ أن يدأبَ بحثاً عنها، وقد بحث الرَّجلُ عن الحقيقة، ولم يطمئن للراحة في يوم من أيام عمره، فلمّا اجتلاها بهره النور، وتحدّث بما مَنّ عليه الله به من توفيق ونجاح.

وأحبُّ أن أقولَ قولاً صريحاً يجب أن يستمعَ إليه مَنْ كان له قلبٌ يعي هذا القول، هو أنّ الاتفاق التام في كلِّ المواقف العلميّة مما يتعسّر وجوده، فمن الطبيعي أن يختلفَ قـومٌ في بعض ما قرّره الدكتور من آراء، وأن ينقدوا رأيه في منطق أمين مهذّب، ولكننا نرى ـ للأسف ـ نفراً من الكتّاب يصطنعون النقد، وليسوا من رجاله، بل يدفعهم الشطط إلى اعتقاد أنّهم وحدهم الغيورون على حقائق الإسلام، وتاريخ العصر الذهبي في أوّله، وأنّ سواهم لا يفهموه شيئاً من حقائق هذا الدين، ومن هذا المنطلق يتعالوْن ويتعاظمون على مَنْ يخالفونه، وأكثرهُم ـ بالرجوع إلى نتاجهم المتواضع ـ نقلةٌ ورّاقون، ينقلون الأخبار من كتب قديمة إلى صحف تتوّج بأسمائهم، ولهؤلاء أقول: إنّ كبار علماء الإسلام كانوا موضع نقد من زملائهم، فلم يزحزح هذا النقد شيئاً من مكانة المنقود، إذ إنّ كل إنسان يخطئ ويصيب، ولا يوجدُ من البشر من يصيب ولا يخطئ إلا الأنبياء!.

فليخففْ هؤلاء من غلوائهم، وليكتبوا النقد بأسلوب علمي بعيدٍ عن الترفع والاستعلاء، وليعلموا أنَّ القارئ في هذا العصر ـ الجدير بكلمة القارئ ـ واعٍ دقيق، يعرفُ الصوابَ من الخطأ، وينكر المجادلة بغيرِ التي هي أحسن، إذ ليست طريق المؤمنين.

المنصورة ٢٥/ ٨/ ١٤٢١هـ
٢٠/ ١١/ ٢٠٠٠م

الدكتور محمد رجب البيومي



الفصل الأول

لمحات من حياته

الفَصْلُ الأوّل

لمحات من حياته

حياة حافلة:

حين نقرأُ ما يُكتَبُ اليومَ عن أعلام الأدب المعاصر، نجدُ أنّ طه حسين والعقاد أشهرُ ذكراً، وأوسعُ انتشاراً لدى الدارسين من زميلٍ لهما كان لا يقلُّ عنهما في إنتاجه الأدبي، بل ربّما كان صاحبَ جدٍّ أكثر منهما، ولا أجدُ تعليلاً لذلك، سوى أنّ طه حسين وعباس العقاد كان لهما من التلاميذ والأشياع ما لم يكنْ لمحمد حسين هيكل، فَطَلَبَةُ كلية الآداب الّذين تخرّجوا على يد طه حسين، أصبحوا يملكونَ زمام الفكر في مصر، ولهمْ تلاميذهُم الذين يكتبون الرسائل الجامعية بتوجيههم، ولطهَ حسين نصيبٌ وفير من هذه الدراسات.

وعباسُ العقاد صاحب ندوة أسبوعية جَمعت حوله نفراً من تلاميذه المتتبّعين لآرائه، والذين اشتُهروا بهيامهم بآثاره، وهؤلاء أيضاً ذَوو شأن في التوجيه الأدبي، والنشر الصحافي، فأخذوا يكتبون عنه في كلّ مناسبة تحين.

أما الدكتور محمد حسين هيكل فقد عُرِف بميله إلى العُزْلةِ الاجتماعية، وأعْني بها عدم اتصاله الدائم بقومٍ يلتفون حوله، ويشيدونَ به، مع أنّه كان يرأسُ أكبرَ جريدةٍ أدبيةٍ في عصره، ولو شاءَ لكانَ أكثرُ كُتّاب (السياسة الأسبوعية) الذين يحوطُهم برعايته أنْصاراً يهتفون له، ولكنّ الرجل كان جادّاً كلّ الجد في مباشرة أعمالهِ الصحفية، وله طريقةٌ

خاصةٌ في حياتـه، حتى معَ زملائـه من الكتّاب، فلم يكنْ يسـعى إلى الحديث عن كُتبه وآثاره، بل يتركُها للقارئ دُون اهتمام بما قد يُقال عنها من نقد إلاّ ما يَكْتبُهُ بعض المشهورين من زملائه، فهو حينئذٍ يضطرّ إلى المطارحـة الأدبية، وله أسـلوبهُ الرصين، الذي يعمد إلى اللّباب دونَ التعلّق بالقشور.

ولعلّ حيـاة الرجل كانتْ باعثـةً على هذا الاتجاه، وأعْنـي بهـا ما اتّخذه لنفسِه من أسلوبٍ في الاتصال بالناس، وأذكر أنّ بعض قرائه فهموهُ على غير وجهه، فكانوا يتحاشَوْن لقاءه، مع أنّه يُرحِّبَ بكل زائر، تـرحيبه الخاص بمنهجه، فهو لا يعقد الندوات، ولا يتّصلُ بقاعـات المحاضرات العامة، ولكنَّه يعتكف على قلمه، فإنْ جاءه زائرٌ رحّب به، ووفّاه حقه من الإكرام.

حدّثني أحدُ منَ كتبوا عنه رسالةً علمية في حياته أنّه تهيّب لقاءَه لما يَعرفُ عنه من التحفّظ، ثم دفعه أستاذُهُ المُشرف إلى هذا اللقاء، فتقدّمَ إلى المنزل، دون ميعادٍ، ولم يَقُلْ للدكتور إنّه جاءَ ليتحدّث عنه في شأنٍ خاصّ به، بل جعَلَ الزيارةَ بدءاً للحديث الخاصّ بالأدب المعاصر، فوجدَ من الدكتور سَعةَ صدْر، وحُسنَ استماع، بَدّدَا عنه كل وحشة، ثم اتّجه إلى ما أراده، فما آنسَ منه تحفّظاً بل حياءً، ولم يشأْ أن يتحدّث عن نفسه، بل أرشدَهُ إلى بعضِ الصحف، الّتي تحدّثتْ عن آثاره وعن نشاطهِ الفكريّ، وطَلبَ منه ألاّ يخصّ جهادَهُ السياسي بحديثٍ طويل، فقال الدارس: ولكنّ فَصْلاً هامّاً في الرسالة سيتمّ بهذا الاتجاه فقال له بعد تفكير: إنّ المذكرات السياسية التي كتبها في جُزْءينْ كفيلةٌ أن تُطفئ ظمأه العلميّ في هذا الاتّجاه.

على أنّ حياة الكاتب الكبير وقد تصدّر للزعامة الفكرية مدة أربعين عاماً من عمره المثمر لم تكن خافيةً على دارسيه، فقد وُلد في سنة (١٨٨٨م) في أسرةٍ ريفية بإحدى قرى (الدقهلية)، وكانَ لوالده وجاهةٌ في قريته، فهو رئيسُها النافذُ الأمر، ومنزلهُ منزلُ الضيفان والوفود، وقد بعث به في الرابعةَ مِنْ عمره إلى مكتب القرية ليحفظَ القرآن الكريم، فأهدى له مِنّةً كبرى حين اتّجه به هذا الاتجاه، إذْ تَلَقَّى الأثرَ القويَّ في تكوينه الأدبي، وإن لم يكنْ في هذه السن يَدْري شيئاً عن معدن البلاغة القرآنيّة، ولكنّ انطباعَ الآياتِ الكريمة في نفسه قد ارتفعَ به إلى مستوّى ذوقي نُدركُه نحنُ في كلّ مَن حفظ كتاب الله، وإنْ لمْ يُواصلْ دراسةً أدبيّةً.

وقد كان موضع اهتمامِ شَيْخه الريفي، نظراً لمكانة أبيه، وإنْ لم يُخْلِه مِنْ عقاب جَسَديّ أشار إليه الدكتور هيكل فيما كتبه في كتاب (في أوقات الفراغ) تحتَ عنوان (تذكار الطفولة) إذ تحدّث عن عقابٍ صارمٍ نَزلَ به، لأنّه لم يَدْفع المقرّر اليوميّ الّذي كان يُعطيه للشيخ ذات مرّة، وهذا يدلُّ على أنّ والده كان كريمَ التعامل مع الشيخ، إذ لو كانَ كرؤساء القُرى من عُمَدِ هذا العهد ذا سطوةٍ جبّارة، ما همّ الشيخُ بمثل هذا العقاب بطفْله، ولَحَذِرَ أن يكونَ موضعَ التنكيل.

ولهذا الخُلق صداهُ في نفس محمد حسين هيكل، إذ أورثه كثيراً من الترفّع عن الصغائر، والأخذِ بالتي هي أحسن في مجابهة المتَطَفّلين. ثم التحقَ بالمدرسة الابتدائية فالثانوية، على نحوِ ما يتّجه إليه أبناء الموسرين، التحق بهاتين المدرستين في القاهرة في رعاية بعض أقاربه.

وكان منزلُ والده يتسع للجرائد اليومية، ولبعض ما صدر من الكتب

العربية قديماً وحديثاً، فعكف التلميذُ في المسامحات الصيفية[1] على قراءةِ ما وَقعَ تحت يده برَغْبةٍ شخصية دون أن يدفَعَهُ أحدٌ إلى ذلك، وبهذه الكتب المتواضعة بدأَ شغفُه بالاطلاع الملّح، فتفوّق على زملائه ممنْ كانوا لا يَهْتمّون بغيْر الكتب المدرسية وحدَها، وحينَ فرغَ من المدرسة الخديوية الثانوية اتّجه إلى دراسة الحقوق، وفقَ اتجاهٍ تكوَّن في نفسه، لأنّ أباهُ كانَ يرى أن يبعث به إلى كلية الطّب، ليكونَ طبيباً مرموقاً، في وقتٍ لم يكن للأطباء انتشار واسعٌ بمصر.

ولكنّ الكاتب أصَرَّ على موقفه، فالتحقَ بالدراسة القانونية، وبرّز فيها تبريزاً رائعاً، وتخرّج سنة (١٩٠٩م) شاباً نابهاً لهُ مستقبله الذي يستطيع أن يلجه مزوداً بدرجته القانونية، وكان ذا طُموحٍ وثّاب، فآثر أنْ يتّجه إلى فرنسة ليأخذَ درجة الدكتوراه في القانون ووافقه والدهُ بعد تردّد، وفعلاً تمّ له ما أراد، وعادَ الدكتور لا ليلتحق بوظيفةٍ حكومية، شأنهُ في ذلك شأنُ الكثيرين من زملائه، ولكنّه آثر أن يكونَ حُرّاً طليقاً، فاتّجه إلى المحاماة، وفتحَ مكتبَهُ بالمنصورة لقُرْبها مِن قَرْيته، فراجَ له صيتٌ قانوني، وأدّى رسالةً كأحسن ما يكون الأداء.

وقد كانَ الطالب في المدرسة الثانوية، ومدرسة الحقوق (كما كانت تسمّى حينئذ) لا يقْتصِر على التثقيف الدراسي، دون مشاركة جادّة في معرفةِ ما يدورُ في مصر من الأحداث، إذ كانت أنْباء الزعماء من أمثال (مصطفى كامل) و(سعد زغلول) و(قاسم أمين) وأخبار (محمد عبده) واتجاهه الإصلاحيّ تأخذُ بكثيرٍ من اهتمامِه الفكري، وإذا عُرِف عنه اتصاله المباشر بـ(أحمد لطفي السيد) نظراً لصلتهِ بوالده وقرابتهِ من

---

(١) العطل الصيفية.

الأسرة. فإنّ لطفي السيد لم يكُن كلَّ شيء في حياته في هذه المرحلة، كما حَاوَلَ بعضُ الكتّاب أن يُقرّر ذلك، بل كان أثرُ هؤلاء الّذين تحدثتُ عنهم أقوى من أثرِه، وإذا عُرِف هيكل في هذه المرحلة بكتابته في (الجريدة) الّتي كان يصدرها أحمد لطفي السيد، فإنّ أثر (المؤيّد) و(اللواء) كان واضحاً في نفسه، وحديثه الرائع عن مصطفى كامل في كتابه (تراجم مصرية وغربية) يدلُّ على مكانـة هذا الزعيم في نفسه، وتأثيره في إشـعالِ روح الحماسة الوطنية لديه، وقد تحدّث عن الشعور العام لدى المصريين يومَ رحيله، بما يدلّ على شدة إعجابه بالزعيم الشاب، يقولُ هيكل بعد أن ذكر قِطْعةً حارّة من رثاء قاسم أمين لمصطفى كامل كانت دموعاً تترقرق[1]:

«لم يكن عجباً أن يكتبَ قاسم أمين على هُدوء نفسه وحُسن تقديره هذا الذي كتب، ولم يكُنْ عجباً أن يحرّك مصرَ من أقصاها إلى أقصاها الحزنُ لوفاةِ الزعيم الشاب. فقد جاءَ به القَدَرُ في فترةٍ من فترات الحياة، حين بدأت الأمّة تنسى مظالمَ الماضي في عهد إسماعيل، وتشعرُ بشدّة وطأة الحكم البريطاني الّذي قامَ على أساس من المصالح المادية..

بعثَ القدرُ مصطفى كامل بشيراً بهذه الحاجات السامية، رفيعَ الصوتِ، عاليَ الكلمة، طَلْق اللسان، قويّ الجنان، يتغنّى لقومه بما تشعرُ به نفوسهم في غوْر أعماقها، فكان طبيعيّاً أن يلتف الظمأى حولَ هذا الورد السائغ، يسمعون هذه الأناشيد التي تطْرِبُ نفوسهم، وتهزّ قلوبَهم، ويجدُ فيها شعورهم الحبيس منفذاً ومُتنفّساً، لذلك كانَ جزاءً وفاقاً أن تحْزن مصرُ على زعيم الوطنية العظيم، مصطفى كامل، وكانَ حقاً أن يرى قاسم أمين في وَحدة هذا الشعور بفقد الزعيم الشاب وحدةً في الأمل

(١) تراجم مصرية عربية، ص١٣٢.

الكبير بمستقبل زاهرٍ».

وحينَ رحل هيكل إلى فرنسة لم يكُنْ من شأنه أن يعكفَ على الدراسة الثانويّة وحدَها، ولكنّه اتّجه فيما اتجه إلى الحركة الأدبية بفرنسة، فقرأ الصّحُف الأدبية والمؤلّفات الفنية، وكأنّه كان يعلمُ في أطوائه أنّه سيكون زعيماً أديباً في قومه، وأنّ عليْه أن يستعِدّ لهذا الموقف بما ينهل من ثقافةٍ معاصرة، لذلك لم يقطع صلتَه بالعمل الأدبيّ في مصر، حيث أخذ يُرْسلُ إلى جريدة (الجريدة) فصولاً متتابعةً مِنْ قصة (زينب) الّتي بدأ كتابتها بباريس، حينَ أدْهَشه من رُقيّها الحضاريّ ما لم يجدهُ في مصر، كَتب هذه القصّة مُسلسلةً في حلقاتٍ، صَادَفَتِ اهتمامَ الجمهور، ولم يكُنْ يُوقّعها بإمضائه الصريح.

ويقول مؤرّخوه في تعليل ذلك: إنّه كان يخشى أن يكونَ العملُ القصصيُّ في نشأتِه الأولى بمصر غيرَ مرموقِ المكانةِ في عهد المقالة الأدبية، التي تُسيطر وَحْدَها على الجمهور، فأرادَ أن يختبرَ موضعَ القصّة من القرّاء، وبخاصة فيما تحدّثَ به عن أوضاعٍ اجتماعيةٍ يَجبُ أن تسيرَ في طريقها إلى الزوال.

وأنا لا أرى ذلكَ، لأنّ الحديثَ عن هذه الأوضاع كانَ قد انْتَشَرَ منذُ عِقديْن من الزّمن، وأصبحَ له كُتّابه المشهورون دون تستّرٍ واستحياء! إنّما الذي كان يحذره الدكتور هيكل هو شعورُ والده الشيخ الريفيّ حين يجد ابنَه يكتبُ في الصحف أنهاراً متصلة، تاركاً عمله القانوني الّذي أرسلَه من أجله، مُتحمّلاً نفقاتِ السفر على أحسن ما يُقدَّمُ لطالب يرعاه والدُه الثريُّ بحنانه! هذه الملاحظة وحدَها كانت باعثَ هيكل على التوقيع المستعار، بدليل أنّ مقالاته الأُخرى في غير قصّة (زينب) كان تخلو من إمضائهِ

الصريح، ومهما يكنْ من شيءٍ فقد عوَّل الطالبُ القانوني على أن يؤدّي رسالةً أدبيّةً إلى جانب رسالتهِ المهنية، وأن يكونَ مبرّزاً في أدائها، وهذا ما شهدتْ به آثاره الحافلة في مستقبله الزّاهر السّعيد.

عادَ هيكل إلى مصر، لا ليكونَ موظّفاً حكومياً، فقد أبى ذلك على نفسه، ولكن ليكونَ محامياً حرّاً، يكسب رزقه في عالم القضاء الواسع دون تقييد، وكانت أسرتهُ القريبة من المنصورة تمدّه بما يساعدهُ على السير في أول خطواته، ولكنّ اسمه تلألأ في عالمه الجديد، وكانَ يرافقه في المهنة ذاتها صديقهُ المؤرّخ الأستاذ (عبد الرحمن الرافعي)، فكانا يسهران بعد انقضاءِ العمل سهراتٍ ممتعة، يتجاذبان شؤون الحديث، لا في المهنة المشتركة، بل في العملِ الوطني، حيث كان لكل منهما اتجاههُ الخاص، فالرافعيّ تلميذُ (الحزب الوطني) يُخلصُ لمبادئه، ومحمد حسين هيكل تلميذ (حزب الأمة)[1] يرى أن يُسالم الإنكليز حتى يستطيعَ أن يأخذَ الاستقلالَ بالهوادة، مادامتْ قوّةُ الكفاحِ غيرَ مهيئةٍ في ظروفِ الاحتلال الإنكليزي الرّهيب.

ثم حَدثَ ما جعلَ الدكتور هيكل يقومُ على تحرير (الجريدة) نائباً لرئيس التحرير، حيثُ إن الأستاذ أحمد لطفي السيد تورّط في كتابةِ مقالٍ أثار غضبَ الجمهور، وقصة ذلك أنّ المصريين قاموا بالتبرّع المالي لمعاونة ليبية حين غزاها الطليان، وضجّت المحافلُ السياسية في مصر هاتفةً بتأييد التبرّع الخالص بالمال لمن أعجزه أن يُسافِرَ ليكونَ جنديّاً في الجيش، وقد سافر بالفعل أبطالٌ كبارٌ مثل (عبد الحميد سعيد)

---

(١) حزب يمثل الأعيان وكبار الملاك، ربط مصالحه بمصالح الإنكليز، وأصبح يبرر الاحتلال، ويدعو إلى الفرعونية. (الناشر)

و(عبد الرحمن عزام)و(صالح حرب)من شُرَفاءِ الوطن العربي ومجاهديه الذين يعتبرونَ بلادَ الإسلام أمةً واحدة! حينها كتبَ (أحمد لطفي السيد) ينتَقدُ هذه التبرعات، ويراها نزعة عاطفية لا ترعى شُؤون الوطن الخاص، إذ على المصريّ أن يقفَ عند حُدود وطنه فحسب[١].

وحيّا الله الشعب المصري حين ثار ثورةً عارمةً على هذا المقال، ونادى بمُقاطعة (الجريدة) التي تهدفُ **إلى مهادنة الإنكليز هدفاً صريحاً دونَ مواربة، فتُثير الكوامن في النفوس، ثم هي الآنَ تدعو إلى قطعِ الأواصرِ بين أعضاءِ الجسد الإسلامي الواحد**: هنا لم يجد أحمد لطفي السيد مَفرّاً من الانسحاب من القاهرة مؤقّتاً، واللجوء إلى قريته بالريف المصري[٢]، فاستدعى الدكتور محمد حسين هيكل للإشراف على (الجريدة) مدّة احتجابه، وحارَ هيكل فيما يصنع، فرأى أن يبتدئ عهدَهُ بمقالات تَدينُ الاعتداء الإيطالي، وتعدُّه جريمةً شنيعةً تُضافُ إلى جرائم فرنسة وإنكلترة وهولندة في احتلال البلاد الآمنة، وكانَ ما كتبه هيكل في هذا النطاق باعثَ هدوءٍ وقتيٍّ لدى الجمهور، لأنّ هيكل لم يُسفّهْ رأيَ أستاذه في عدم التبرع للقطر الشقيق، ولكنَّه نقل الحديث من ناحيةٍ إلى ناحية!!.

ثم رأت الجامعة المصرية القديمة أن تستعينَ بالدكتور هيكل أستاذاً للقانون الدستوري بها، لأنّه مؤهلٌ لذلك بما أحرزَه من درجة علمية تجِد

---

(١) كان يمالئ في هذا المقال الإنكليز والخديوي عباس حلمي الذي كان موالياً للطليان ضد عرب ليبية. (الناشر)

(٢) ومع هذه المواقف المخزية لأحمد لطفي السيد ما زال هناك من يسميه أستاذ الجيل!. (الناشر)

الاعترافَ بها في العالم جميعه، ومَن ذا يُنكر درجة السوربون حينئذٍ في عالم الثقافة والتوجيه؟.

فكان يترك عمله المهنيّ بالمنصورة يومي الأربعاء والخميس، ويأتي إلى القاهرة ليُلقي الدّروسَ التي أُنيطت به.

وقد سُئل عن محاضراته إذ ذاك كيفَ أهملها دون أن يقومَ بطبعها للطلاب؟ فاعترف أنّها ملخّصاتٌ لمبادئ مقررة كان له فضْلُ صياغتها فحسب، وأنّ النتاج الذي يطبعه الأستاذ الجامعي يجب أن يكونَ ذا جدة وابتكار، وهذا تواضعٌ منه، لأنّ مثله لا يقف عندَ حدود التلخيص، بل يقدّم من التعقيبات ما يضيفُ الجديد، فليتَ الّذين يغمروننا الآن من الأساتذة الجامعيين بصحف تتوالى في كتب تتكرّر سنوياً، وكلّها حافلةٌ بالمُعاد المعروف مِنْ قواعد العلم، ويَعدّون أنفسهم مؤلّفين، ليت هؤلاء يعلمون ما علمه هيكل ـ من أنَّ رسالة الأستاذ الجامعي ليست جمع ما عُرف في مذكّرات تحمِلُ أسماء الكتب المنهجية ـ ليعدلوا عن هذا الطريق.

وحين قامت الحرب العالمية الأولى، وضاقت الأحوالُ بمصْر تحت وطأة الحكم العسكريِّ القاهر، رأى الدكتور هيكل ألاّ مجالَ للحديث عن السياسة، والغربُ يشتعل باللهيب، وقد امتد شواظُه إلى الشرق، فأعْدَمَهُ الراحة، وسلبه خير البلاد، ليكونَ عتاداً لجيوشِ الاحتلال قهراً دون اختيار.

وهنا فكّر مع زملائه المفكرين في إصدار مجلّةٍ أدبيّة ترعى شؤون الفكر، ووجدوا في جريدة (السفور) التي كان يصدرها الأستاذ (عبد الحميد حمدي) متنفَّساً لأقلامهم، وكان يزامل هيكل نفرٌ من شباب مصر صاروا من بعدُ زعماء النهضة الأدبية الحديثة، وكان له محاوراتٌ

قلميّة مع الدكتور (طه حسين) و(منصور فهمي).

بل إنَّ طهَ كان يلحُّ عليه أن يُعارِضَ اتجاهه حين حبَّذَ قيامَ الحروب في مقالٍ ثائرٍ، بدعوى أنّها تجدد شباب القوّة، وتهيّئ أسبابَ الاختراع والتقدم العلمي.

وقد عارضَ هيكلُ هذا الادعاء، ولأنّه يعرفُ أنّه تفكيرٌ سوفُسْطائي يعتمد على الخلابة اللفظية دون أن يعبّر عن إحساسٍ واقعيٍّ، وإلاّ فأيُّ خيرٍ يصيبُ البشرية من إراقة الدّماء في غير إصلاحٍ وارتقاءٍ؟! إنّ أبطال الحروب الهجومية من أمثال (الإسكندر) و(جنكيز خان) و(نابوليون) سفّاحون لا أبطالُ، إذ لا يدافعون عن حقٍّ مهضوم، بل يُريدون أمجاداً تُساق إليهم، ويَحْلمون بخلود التاريخ عن طريق إراقة دماء الآلاف من الشهداء في غير ميدان حقيقي للنضال.

ويتبعَ ذلك إنشاءُ الحزب (الديمقراطي المصري)، وهو حزبٌ اشترك هيكلُ في تأليفه معَ فريق من المفكّرين أكثرُهم من كُتّاب جريدة (السفور) وقد نادى باستقلال البلادِ عن طريق المقاومة بعد انتهاءِ الحرب العالمية الأولى، وإعلانِ (ولسن)[1] عن حقوق الأمم شرْقاً وغرباً في الاستقلال، وتقرير المصير، وقد انتشرتْ فكرة الحِزْب لدى المثقفين، ولكنّه كان حِزْب أفراد يحلمون، لا حِزْبَ شعبٍ يتجمّع حول المبادئ، ولا يكفي أن يُنادي خمْسةُ أدباء باتجاهٍ خاصٍ ليكونوا زعماءَ حزبٍ ينطق باسم جمهورٍ لا يكادُ يعرف عنهم شيئاً.

وقد جامَلَهُم (سعد زغلول) وعدَّ عملهم خطوةً عمليةً في سبيل

---

(١) رئيس أمريكة في أثناء الحرب العالمية الأولى.

الاستقلال، ولكنّهم أحسُّوا بعد أن قامت ثورة سنة ١٩١٩م أنهم يقفون في اتجاهٍ فرديّ، وأنَّ الواجب أن يكونوا مع الشّعب في ثورته، وقد تطوّرتِ الأمور تطوّراً خطيراً، حين انشقّ بعضُ الزعماء على (سعد زغلول) وأعلنوا تأليف (حزب الأحرار الدستوريين)، وما كانَ الدكتور هيكل بادئ ذي بدء يُفكّر في تَرْكِ الحزب الديمقراطي والانضمام إلى حزب الأحرار، ولكنّ الأستاذ أحمد لطفي السيد قد ألحّ عليه إلحاحاً شديداً أن ينضمَّ إلى الحزب، وأنْ يكون رئيسَ تحريرٍ لجريدة (السّياسة) التي تنْطق بلسانه، وهي مهمةٌ شاقة خطيرة، لأنّ (حزب الأحرار الدستوريين) كانَ يتألّف من جماعةٍ (أصحاب المصالح الخاصة) الّذين كانوا يمثّلون (حزب الأمة) في عهد (كرومر)، والذينَ وجدوا من الاحتلال كلّ تأييد.

لقد استجابَ هيكلُ لطلبِ أحمد لطفي السيد، ورأسَ تحريرَ (السياسة)، وعلى صفحاتِها برزَ دوره السياسيّ في تاريخ مصر، وانهمكَ في الحزبية انهماكاً شغل أكثرَ وقته، على ما سنشير إليه عند حديثنا عن سعد زغلول وهيكل باعتبارِ سعدٍ زعيمَ الأمة، وهيكل الكاتب الأول الذي يعارضه، ويشرف على المقالات الحادّة التي توجّه ضده، وأقول الحادّة، لأنَّ جريدة (السياسة) بدأت هادئةَ النبرة، ثم استحالت كتلةً من الغضب الثائر رداً على الصحف التي تناوئها بضراوة.

ومهما يكن من شيء فقد ظل هيكل قائد الصحيفة حتى تولّى وزارة المعارف في آخر يوم من سنة ١٩٣٧م، لأنّها أقربُ الوزارات إلى قلبِه، وبمجهوده وضعَ هيكل أساسَ النّظام لِلّامركزية في التعليم، فأنشأ المناطق التعليمية في كل عاصمة من عواصم التعليم، لتدير المدارس التابعة لإقليمها، بعدَ أنْ كانت القاهرة هي المركز الوحيد لكلّ مدارسِ القُطر،

كما أنشـأَ مجلسَ التعليم الأعلى حين تولى الوزارة ثانية سـنة ١٩٤٠م، وجعلَ من مهمتـه العمل على إعدادِ خططٍ ترتفعُ بالتعليم إلى مسـتوى المدارس الأوروبية، معَ مراعاة حاجةِ البلادِ بالنسبة إلى التعليم الزراعيّ والتجاريّ والصناعيّ.

وقد افتتحَ المجلسَ بمحاضرة ضافية، ترسَّم ماتسير عليه الوزارة من خطط، وما يُرجى أن تتطوّر إلى ما هو أفضل، كما أوضحَ الآراء المختلفة في التعليم الأولي، وصلتهِ بالتعليم الابتدائي، ثم صلةِ الأخير بالتعليم الثانوي، مُبيّناً ما وُجّه إلى كلٍّ منها من مآخذ جوهرية تتطلّبُ العلاج، وخصّ اللّغة القومية بمزيد اهتمامه، لأنّها أصلُ التقدم الثقافي في مصر، كما امتدّ بنظره إلى الإصلاح الاجتماعي فكانَ صاحبَ الفضل في إنشاء جمعيّتهِ التي أدّتْ دورها، وتبنّتْ إنشاء معاهد الخدمة الاجتماعية لأوّل مرّة في مصر.

وإذا كانت مرّات الوزارة قد تعددتْ بالنسبة لهيكل، فإنّه انتهى إلى رئاسة مجلس الشيوخ، فأعادَ للبرلمان مكانته التي حظي بها في رئاسات (سعد زغلول) و(حسين رشدي) و(مصطفى النحاس)، وكانَ موقفه بالغ الدقة، لأنّ أكثرية الأعضاء لم يكونوا من حزبه وحزب مُحالفيه، بل كانوا من حزب الوفد، أقوى الأحزاب خَطراً، وأكثرها شعبيّة واهتماماً بالمواطن المصري، ولم تمتدّ رياستهُ، إذ اختارتْ حكومةُ الوفد عضواً من أعضائها البارزين للرئاسة.

وبعيداً عن المناصب الرسميّة، تبوّأَ هيكل رئاسةَ (حزب الأحرار الدستوريين) وهو الحزبُ الذي يرأسه من قبلُ (عدلي باشا) و(عبد العزيز فهمي باشا) و(محمد محمود باشا)، وكلّهم من أصحابِ المكانة العليا في

مصر، ولم يكنْ محمد حسين هيكل أقلّ منهم كفاءةً في هذا المجال، ولكنّه زادَ عليهم بالتواضع والتسامح، إذ إنّ الأرستقراطية العالية كانت أبرزَ سمات سابقيه من زعماء الحزب، فباعدتْ بين الحزب والجمهور مباعدةً شاسعةً، بحيث كان لا يفوز في الانتخابات إذا كانت حرّةً، ولكنه كان يفوزُ عندما تتدخل الحكومة، فتُسقط معارضيها بالتزوير، وهذا حق يجب أن يقال!.

ثم قامت الثورة، فأُجبر هيكل على الانزواء السياسي حين حُلّت الأحزاب، ولُفّقتِ التّهم للأبرياء، كي يتمكن العسكريّون من الحكم، فيكون منهم الزعماء والوزراء، ومن يتملقون اتجاهات الحاكمين، واعتكفَ هيكلُ في منزله كاتباً يسطّر مذكراته، ويُراجع ما تحتاجُ إليه كُتُبه من زيادات، حتى لقيَ ربّه في صباح السبت.. من ديسمبر سنة ١٩٥٦م، بعد ثمانية وستين عاماً قضاها كاتباً وسياسياً وزعيماً، فاكتسبَ مكانتهُ الخالدة بين المفكرين!.

* * *

في عالم الصحافة

سأذكرُ في فصلٍ تالٍ ما انتهى إليه الدكتور هيكل من مُراجعةٍ لآرائه الفكرية، بحيثُ عدّل كثيراً من آرائه في ضوءِ ما اهتدى إليه من الحقائق، فإذا أخَذْنا عليه في طوره الأوّل بعض ما لا نجدُ مجالاً للاتفاق عليه، فهذا شيءٌ طبيعيّ، وكلّ إنسانٍ يُخطئ ويصيب.

لقد كانَ من قِسْمة الدكتور هيكل أن يكونَ رئيساً لتحرير جريدة تتّجه في نشأتها الأولى وِجْهة الغرب، وترى في حضارته موضعاً للاقتداء، وثَقافته مكاناً للاستفادة، وفي هذا الاتّجاه تورطتِ الجريدةُ في تأييد آراء ظهرَ عوارها، ولم تقفْ عند التأييد، بل انتقلتْ إلى الهجوم على أصحاب الرأي المخالف، ورمْيِهم بقصر النظر، وقلّة الاطلاع تارة، وبالغرض المتّجه إلى تأييدِ منْحًى سياسي تارةً أخرى، يتجلّى ذلك في موقف جريدة (السياسة) من كِتاب **(الإسلام وأصول الحكم)**، وكتاب **(الشعر الجاهلي)** حيثُ لم يكتفِ المحرّرون بها بنقد الرأْي المخالف، بل اتّجهوا إلى رمي خُصومهم بالجمود والانتهازية. وكَسْبِ الجماهير عن طريق الخداع، وأدهى من ذلك كلّه أن يتحدّث المتحدثون عن موقف جريدة (السياسة) في بحوثٍ جامعيّة، فلا يَهتدوا إلى صواب، بلْ إلى شطط مارِقٍ، حين يزعمُ زاعمٌ أنّ صاحب[١] **(الإسلام وأصول الحكم)**

---

(١) هو الشيخ علي عبد الرزاق نجل حسن عبد الرزاق باشا أحد الأعيان وأحد مؤسسي حزب الأمة الموالي للإنكليز.

يمثّل مدرسة الإمام (محمد عبده) ويصدر عن اتجاهه، وهي خديعةٌ بدأ بها (تشارلز آدمس) صاحب (**الإسلام والتجديد في مصر**) حين ألّف رسالتَه عن التجديد الإسلامي المعاصر في زَعمه، وهي تَدورُ على مدرسةِ الإمام، ومن يلوذون به من التلاميذ والأصدقاء، ومَبْلغ تأثيره في اتجاههم، ثم يجعلُ ملحق الدراسة كتاب (الإسلام وأصول الحكم) ليدلّس على القارئ حين يُفهِمهُ أنَّ الكتاب ثمرةٌ من ثمار الأستاذ الإمام.

ولو كانَ (تشارلز آدمس) ينشِدُ الحقيقة لِذات الحقيقة لجعلَ الملحقَ الخاص هو كتاب (رسالة التوحيد) للأستاذ الإمام، إذ هي من تأْليفه، وتعتبرُ مِثالاً لاتجاهه، وحينئذٍ يكون الملحق مستقرّاً في موضعه! أما أن نأتي بكتابٍ يُقرّر غيرَ ما اتجه إليه الإمام في كُتُبه ومحاضراته، ثم نجعلُه مُلحقاً لدراسةٍ خادعةٍ عنه، فهذا هُو التدليسُ بعينه.

لقد جاءَ نفرٌ ممن تحدّثوا عن كتاب (الإسلام وأصول الحكم) فذكروا أنّه يسير على منهج الإمام، وتفسير المنار لَدينا ينقلُ في سُوَرِ البقرة وآل عمران والنّساء ما يعصفُ بكلّ ما ساقه صاحب الكتاب من أراجيف، وإذنْ فدفاعُ جريدة (السياسة) ودفاعُ الدكتور هيكل عن الكتاب، ورَمي مُخالفيه بالغرض والجهل مما يُؤاخَذ عليه الدكتور هيكل، ومن يقرأُ كُتُبَهُ الإسلامية بعد هذه الفترة يجد اتجاهاً غير هذا الاتجاه، وبعداً كبيراً عن هذا الجموح.

ولكي نُظهِرَ الرأيَ الصحيح في هذا الكتاب فلن نرجعَ إلى أقوال مُعارضيه من فطاحل النقّاد[1]، ولكننا نرجع إلى رأي زعيم الأمة (سعد

---

(١) منهم الإمام الأكبر محمد الخضر حسين شيخ الجامع الأزهر، والشيخ محمد بخيت المطيعي مفتي الديار المصرية، والشيخ طاهر ابن عاشور شيخ الجماعة=

زغلول) وهو الفقيهُ الأصوليّ الّذي درس التشريع دراسةً مقارنةً، وألمَّ بدقائقَ ظهرت في أحكامه القضائية على وَجه صريح:

«قال سكرتيره الخاص الأستاذ محمد إبراهيم الجزيري، قُلتُ له: ما رأيُكم في كتاب (**الإسلام وأصول الحكم**) فقال مُهتمّاً، كمن يستعدّ لإلقاء محاضرة:

لقد قرأتهُ بإمعان لأعرفَ مبلغ الحملات عليه من الخطأ والصواب، فعجبتُ: أوَّلاً، كيف يكتب عالِمٌ دينيٌّ بهذا الأسلوب، في مثلِ هذا الموضوع، وقد قرأتُ كثيراً للمستشرقين وسواهم، فما وَجدتُ مِمّن طعنَ منهم في الإسلام، حِدَّةً كهذه الحِدّة في التعبير، على نحوِ ما كتب الشيخ علي عبد الرزاق، فقدْ عرفتُ أنّه **جاهلٌ بقواعد دينه**، بلْ بالبسيط من نظريّاته، وإلاّ كيف يدَّعي أنّ الإسلام ليس مدنيّاً، ولا هو بنظامٍ يصلح للحكم، فأيُّ ناحية من نواحي الحياة لم يَنُصَّ عليها الإسلام، أهي البيعُ أو الإجارة أو الهبة أو أيّ نوع من أنواع المعاملات؟! ألمْ يدرس شيئاً من هذا في الأزهر؟ أو لم يقرأ أنّ أمماً كثيرة حكمت بقواعد الإسلام فقط، عُهوداً طويلة كانت أنضرَ العهود، وأنّ أُمماً لاتزال تحكم بهذه القواعد، وهي آمنةٌ مطمئنةٌ، فكيفَ لايكون الإسلام مدنيّاً ودين حكم؟ وأعجبُ من هذا، ما ذكره في كتابه عن الزكاة! أين كان هذا الشيخُ من الدراسة الدينية الأزهرية؟ إنّي لا أفهم معنى للحملة المتحيّزة التي تُثيرُها جريدة (السياسة) حول هذا الموضوع، **وما قرارُ هيئة كبار العلماء بإخراج الشيخ عليّ مِن زُمرتِهم إلا قرارٌ صحيح لا عيبَ فيه**، لأنّ لهم حقاً صريحاً بمقتضى القانون

= في جامع الزيتونة بتونس، والدكتور المؤرخ محمد ضياء الدين الريس. (الناشر)

والعقل أن يُخرجوا من زمرتهم من يخرج على أنظمتهم، فهذا أمرٌ لا علاقة له مُطلقاً بحريّة الرأي التي تعْنيها السياسة».

هذا عن كتاب (**الإسلام وأصول الحكم**)، وأمّا كتابُ (**في الشعر الجاهلي**) الذي احتَضَنَتْهُ جريدة (السياسة)، وكَتَبَ الدكتور هيكل يدافعُ عنه، ويتصدى لمهاجميه، فأنا أعجبُ لذلك كلَّ العجب! إنَّ كتابَ (في الشعر الجاهلي) لم يقف علماءُ الأزهر ومِنْ ورائهم صفوةُ المؤمنين في طريقة لأنّه يدعو إلى إنكار الشعر الجاهلي، وما كانَ الشعر الجاهلي ذا قداسةٍ عند المسلمين حتى يثورَ الأزهرُ بشأنِ إنكاره! ولكنّ الدكتور طه حسين تعدّى البحث في الشعر الجاهلي إلى نَقْد القرآن الكريم دون ضرورةٍ، وبدون مناسبة تدعو إلى التعرّض لهذا الكتاب الكريم، فقد قالَ ما نصه: «**للقرآنِ أنْ يحدّثنا عن إبراهيم، ولكنّ حديثَ القرآن عنه لا يَعْني إثباتَ وجوده**» فهل إذا قامَ كاتبٌ بنقل آراء المستشرق (مرجليوث) نقلاً حرفياً بصدد إنكار وجود سيّدنا إبراهيم، وجاء الدكتور طه لينتحلَ رأيَه، وينسبه لنفسه، ثم يُلقيه على طلاّب كلية الآداب، ويُذيعه في كتابٍ مطبوعٍ فاحتجّ الأزهر لهذا الكفر الصريح، يكونُ حجرَ عثرةٍ في طريق حرية الفكر؟[1] وما فائدةُ الأزهر إن لم يذُدْ عن كتابِ الله حينئذٍ؟.

لقد كانَ الدكتور طه في غُنية عن حديثه عن سيدنا إبراهيم، إذ لا مَساسَ له بالموضوع الذي يتحدّث عنه إلاّ بطريق احتيالٍ مستطرِد!! وكأنّه أراد أن يَلفت الأذهان إلى كتابه، فيقوم المسلمون بثورةٍ تُذيع اسمه في الناس! وجريدة (السياسة)، وكُتّابُ جريدة (السياسة) يتجاهلون هذه

---

(١) هؤلاء يخلطون بين حرية الفكر وحرية الكفر وبينهما بون شاسع كما يقول العلامة الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله تعالى. (الناشر)

الحقيقة، ثم يزعمون أنّهم يدافعون عن حرية الفكر، ويُنكرون على الأزهر حريّته في الدفاع عن الدين، كأن الحرية وقفٌ عليهم وحدهم، وليست سبيلاً للناس! .

لقد عرضتُ ماتورطتْ فيه جريدة (السياسة) برئاسة الدكتور هيكل، لأني أكتُبُ للتاريخ، **لا لأمجّد شخصاً عَدلَ عن طريقه إلى طريق مستقيم**، فسَلِمَ أمره فيما بعد، على أنّي لا أنكرُ لَهُ وقفاتٍ صادقة في الدفاع عن قضايا إسلامية، حاول بعض الناس أن يشوّهوا وجهها الصحيح، فوقفت جريدة (السياسة) وقفةً صريحةً في وجوه هؤلاء، ونالت رضى المخلصين، ومن أشرِف مواقفها الحاسمة، موقفُها من (التبشير) الّذي انتشرتْ فظائعه في عهدِ حكومة (إسماعيل صدقي)، فقامَ الدكتور هيكل في جريدة (السياسة) بمهاجمته عن حميّة، فكتبتْ أكثر من ثلاثين مقالاً في هدم هذا العدوان[١]، وقد أحصاها الأستاذ أنور الجندي في كتاب(الصحافة السياسية) مؤكداً أنّ (السياسة) كانت بالغة الاهتمام بموضوع التبشير، ونقل بعض ما كتبه الدكتور هيكل في هذا الصدد، ومنه هذه المعاني الصادقة[٢]:

«إنَّ تغريبَ الشرق إنما يُقصد منه قطع صلة الشرق بماضيه، جهد المستطاع من كل ناحية من النواحي، وإذا أمكن قطع صلة التفكير والعقيدة بين الماضي والحاضر، أمكنَ صبْغُ ماضي الشرق بلوْن قاتم مظلم، يرغبُ عنه أهله، ويروْن فيه عاراً لهم بحُجَجِ هذا التغريب، وفقدتْ شعوبُ الشرق صلتها بماضيها، ففقدتْ بذلك أعظم جانبٍ من حيويتها، وبقيتْ

---

(١) عدوان القس زويمر المبشر الكريه، الذي اقتحم الأزهر ليوزع على علماء المسلمين منشورات الصليبية الحاقدة!!. (الناشر)

(٢) الصحافة السياسية، للأستاذ أنور الجندي، ص٦٠٨.

عيالاً على الغرب، تتطلّع إليه تطلّع إعجابٍ وتقديس، لذلك أُريدَ قطع صلة حاضرنا بماضينا في التاريخ والعلم والتفكير، كذلك أُريد قطعُ هذه الصلـة في أمر العقيدة، وَوُكِلَ إلى المبشّرين أن يقوموا بهذه المهمـة الخطيرة، وهي تزييفُ العقيدة الإسلامية، وأنْ يحملوا المسلمين على الاعتقاد بأنّها سبب تأخرهم، وعدمُ بلوغهم مبلغ الغرب في حضارته، وقد اعتُمدت عدة ملايين في الشرق للتبشير عندما أُبرمت معاهدة (لاتْران) مع إيطالية، ورُدّت إلى الفاتيكان الأموال التي كانت الحكومة الإيطالية قد حجزتها».

كما نقل الأستاذ أنور الجندي ما جاء في مذكرات الدكتور هيكل عن جهوده في معركة التبشير ومنها قوله:

«قمتُ بحملةٍ بالغة العنف على التبشير والمبشرين، ولما كانتِ الأنباء تردُ إلينا عن نشاطِ الحركة التبشيرية في مصر، وفي المعادي، وفي المطرية، وفي بور سعيد، لم أجدْ في التحقيق معي ما يمنعني من أنْ أُتابع حملتي الصحفية العنيفة على هذه الحملة التبشيرية الأثيمة، وأنْ أُلقي على إدارة الأمن العام تبعتها، واستمرّت الحال شهوراً، دُعيتُ أثناءها إلى (النيابة) ورُفعتِ الدعوى علينا أمام محكمة الجنايات بتهمة أننا نُحرّض أهل الأديان المختلفة بعضهم على بعض».

وقد وقفت جريـدة (الجهاد) وجريدة (البلاغ) ومجلة (النهضـة الفكرية) في وجه هذا العمل الخبيث، ولكنها لم تواصل الطرق الساخن على نحو ما فعل الدكتور هيكل على صفحات (السياسة).

وأعجبُ ما رواه الأستاذ أنور الجندي[1] في هذا الموضوع عن

---

(١) الصحافة السياسية، ص٦١٢.

الدكتور طه حسين أنه يَسخر من حملة (السياسة) على القائمين بالتبشير، وكتب في جريدة (كوكب الشرق) يقول:

«الحديثُ عن المبشرين فرضُ كفاية، إذا قام به المراغي سقطَ عن الظواهري، وقد تحدّث المراغي أوّل أمس فسكتَ الظواهري أمس، ولكنّ السياسة قليلةُ العلم بالفقه، فهي تعتقدُ أنّ على كلِّ عالمٍ من علماء الدين أن يتحدّث عن المبشرين، والحديثُ عن المبشرين لا يخلو من ضرر، ولا سيّما حين يكونُ المتحدث من أهل المناصب الكبُرى، فهو قد يغلو فيستقيل أو يُقال، وقد يقصّر فتسوءُ به الظنون».

والدكتور طهَ يُدافع عن قضيّـة خاسرة، فهو لم يستطعْ أن يجدَ من البراهين المعقولة ما يؤيّد به وجهة نظره في عدم التصدّي للمبشرين! إذ قال أوّلاً: «إنّ الحديث عن المبشرين فرضُ كفاية إذا فعله المراغي سقط الأداء عن الظواهري»، وهذا خطأٌ صريح، لأنّ الدفاع عن الإسلام في وُجُوهِ أعدائه المتكالبين على هدمه، فرضُ عَيْن لافرضُ كفاية، ويجب على المسلمين جميعاً أن يكونوا على قلب رجل واحد في هذا المجال، فجريدةُ (السياسة) إذنْ ليست قليلةَ العلم بالفقه حين جاهدت في سبيل الله، ولكنّ قليلَ العلم من يُفتي بالباطل دون أن يعرفَ ما يقول! ثمّ إنّ الشيخ الظواهري لم يَسكُتْ عنْ قضية التبشير حينَ تكلّم المراغي، بل آزرَهُ بأبلغ ما يستطيع من جهد، ورأَسَ اجتماع هيئة كبار العلماء في جلسةٍ طارئة لمُناقشـة هذه الدّاهيـة النكراء، ووافقَ المجتمعون على إرسـال خطاب إلى رئيس الوزراء مَمْهوراً باسم الشيخ الظواهري للقيام بوقفِ هذا العدوان، ونحن ننقل بعضَ ما جاء في هذا الخطاب عن مذكرات (شيخ

الإسلام الظواهري)[1] فمنه:

«استغلّ المبشرون ما عُرف عن المسلمين من حسن ضيافتهم، وسعةِ صدورهم للأجانب في إغواء ضعفاء الإدراك، بوسائل تُعتبر من أكبر الجرائم التي لا يَسوغ لمن يدعو إلى دين أن يرتكبها، ولقد تمادى هؤلاء المبشّرون في أعمالهم، حتى افتُضحَ أمرهم، وفطنَ الناس أخيراً إلى ما يتخذونه من وسائل الاستهواء والخديعة تارة؛ ووسائل التعذيب والعنف تارة أخرى.

ولما كانت الشريعة المطهرة تُوجِبُ على العلماء في مثل هذه الحوادث أن يفكّروا ويتدبّروا فيما يمنع هذا الشر المستطير اجتمعت هيئة كبار العلماء في يوم السبت ٣ ربيع الأول سنة ١٣٥٢هـ (٢٦ حزيران ـ يونيه سنة ١٩٣٣م)، وتداولوا الأمر بينهم فيما آلت إليه حالُ هؤلاء المبشرين.

وكانَ مما قررته في هذا الاجتماع، مطالبة الحكومة بسنّ تشريع حازم يجتثّ جذور هذا الفساد، ويستأصلُ شأفة هذا المرض الوبيل الفتّاك، كي يطمئنَّ المسلمون على الدين الإسلامي والقرآن المجيد، وكي يكونَ أولادُهم وإخوانُهم وأقاربُهم في مأمن من أن تصلَ إليهم أيدي الاعتداء أو الإغراء لتحويلهم عن دينهم، ولقد عَهدتْ إليّ ـ هكذا يقول الشيخ الظواهري ـ الهيئة الموقرة في أن أسعى لدى الحكومة لاستصدار التشريع الذي يمنع التبشير، إلى أن قال:

وإنّ الأمّة الإسلامية التي شهدتْ أولادَها من بنين وبنات يُتخطّفون من حولها، وتُستخدم معهم أنواع الإغواء والإغراء لتحويلهم عن دينهم،

(١) السياسة والأزهر، للشيخ الظواهري، ص٣١٦.

لا تنتظر من الحكومة الإسلامية أقلّ من أن تسنَّ هذا التشريع الذي يحولُ بين أولادها وعمل هؤلاء المبشرين» محمد الأحمدي الظواهري.

فالشيخ الظواهري لم يسكُت بعد أن تكلّم الشيخ المراغي، ولكنّه نهضَ بعملٍ جماعي، حين دعا هيئة كبار العلماء لمناقشة الجريمة من كافة وجوهها، ثم انتهى الأمر إلى وجوب إصدار تشريع يمنع التبشير.

وللدكتور هيكل مقالات جيدة تتحدث عن التعليم الديني بالمدارس، وتدعو إلى تبسيط مسائله أمام الطلاب، بحيث تكونُ سهلةَ المتناول، وإذا كانت صحيفة (السياسة) قد اتسعتْ لفريقٍ علماني في أول عهدها، فقد تضمّنت ردودَ العلماء على ما يقول هؤلاء، ثم انتهت إلى الصواب حين عرفت خداع الغرب، وآمنت بمستقبل العروبة والإسلام.

على أنّ الدكتور هيكل كان رئيساً للتحرير يمثل الرياسة الحقيقية في علوّ النفس، ومواجهة الحقائق، فقد أراد وكيل الحزب ـ وهو صاحبُ الأمر المالي في الجريدة إذ يُنفق عليها من سعته ـ أن ينشرَ كلاماً لم يقع لدى الدكتور هيكل موقع القبول فرفض، واضطر الوكيل أن ينشرَ بيانه في (الأهرام) وكانَ من سعة الصدر بحيث قَدَّرَ اعتزاز هيكل برأيه، وموقفُ الرجلين معاً حميدٌ كريمٌ.

وقد عرض عليه (صدقي باشا) أن ينتقل من رئاسة تحرير (السياسة) إلى رئاسة تحرير (الشعب) بأجْرٍ مضاعف، على أنْ يكونَ صاحبَ الرأي الخالص فيما يكتب دون توْجيهٍ فرَفَض، وكرّر صدقي باشا ـ وكان رئيس الوزراء إذ ذاك ـ الدعوة، إذ أرسلَ صهر الدكتور هيكل إليه شفيعاً، ولكنّ الرجل رجلُ مبدأ، لا طالبُ ثراء، فرفضَ في إباءٍ!.

وإذا عُلِمَ أنَّ كبار الأدباء كانوا زملاءهُ في تحرير (السياسة) ومنهم

من لا يقلُّ في مكانته الأدبية عنه، وأنَّه كان يرفضُ من مقالاتهم ما لايجدهُ مستقيمَ الرأي في تقديره، وفيهم من ترك الجريدةَ احتجاجاً على هذا السلوك، إذا عُلم ذلك عرفنا أنَّ الرجل صادقُ النيّة فيما بينه وبين نفسه! أما أن يكونَ اتجاهه في بعض المواقف مما يتوجه إليه النقدُ ـ كما أسلفتُ في صدر هذا البحث ـ فهذا ما لا خلاف عليه ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [هود: ١١٨].

* * *

في محيط السياسة

ليس من شأني في هذه الصفحات أن أُسْرفَ في الحديث عن اتجاه هيكل السياسيِّ، **لأني أتحدّثُ هنا عنه من زاوية إسلامية فحسب**، ولكنَّ واجبَ التاريخ يقضي أن أشير في إيجاز إلى اتجاهه السياسيِّ العام، ولما كان الدكتور هيكل يرأسُ تحرير جريدةٍ تناوِئ الحزبَ الممثل للأمة بزعامة (سعد زغلول)، فقد رأيتُ أن أوضّح بإيجاز اتجاه الكاتب الكبير من خلال علاقته الشخصية بزعيمٍ يعارضه، ويكتب المقالات ضدّ اتجاهه، لأنَّ في عرض الوجهتين المختلفتين ما يُرسلُ الأضواء الكاشفة لاتجاههما المعارض في حَيدةٍ وإنصاف.

نعم كان الدكتور (محمد حسين هيكل) يرأسُ تحرير أكبر جريدة تعارِضُ (سعد زغلول)، فهو بذلك يتحمل تبعةً ثقيلةً، إذ يحاربُ أكثريّة ساحقة أمام أقليّة تستند في تركيبها الحزبيِّ إلى أصول من الأرستقراطية والثراء والجاه، ولا تحسّ بعواطف الطبقة الكادحة، إذ إنّ مهمة هيكل في جريدة (السياسة) غير مُهمة (عبد القادر حمزة) أو (عباس محمود العقاد) في جريدة (البلاغ)، فالأول يسبحُ ضدّ التيار باذلاً أقصى جهده كي يبلغ الشاطئ دون جراح، أما الآخران فمع منطقهما المفحم، وسطوتهما القاهرة، نجد أنَّ الأداةَ مهيّأةٌ، والطريقَ معبدٌ، وكانَ (سعد العظيم) يعرِفُ مواهب الدكتور (هيكل)، ويرى في مقالاته المتدفقة الجياشة دليلَ موهبةٍ قادرةٍ، لأنَّ الدكتور (هيكل) رجلُ قانون قبل أن يكون كاتب صحيفة، فهو

يرتّب حججه الدفاعية ترتيباً متناسقاً، وأسلوبه الأدبي يمدّه بتدفق جياش تنساب معانيه انسيابَ الموج المندفع في المحيط، لذلك كان سعدُ يرحّبُ بلقائه، ويطيل نقاشه في (السياسة) وفي غير (السياسة) من قضايا الاجتماع والأدب، وهيكل يرحّب بلقائه، إذ يرى في تسلسل حديثه المتشعب ما لا يجده عند زعماء حزبه، وما زال الفكرُ الأصيل صلةً أكيدةً بين المفكرين الأصلاء، وإن اختلفت وجهات أنظارهم، لأنَّ المفكر الأصيل لا يرحّبُ بمن يؤيده في الحوار قدرَ ترحيبه بمن يعارضه، لأنّه يجبره على التفكير، وينتقل به من حجةٍ إلى حجةٍ، وقد يُصحّح بعض أفكاره، ولولا أنَّ هيكل بمنزلة الابن سنّاً من سعد لقلتُ إنّ في لقائهما ما يُعرَف عند المؤرخين بصراع الأقران.

لقد أسندت رئاسة تحرير (السياسة) إلى الدكتور هيكل، ولم يتجاوز الثلاثين بأمد طويل، وهو بهذه القيادة الصحفية مُلزم بالدفاع عن تُهم توجّه إلى من ينطق بلسانهم، وقد يكون ذلك أكبر من مقدرة شخص واحد مهما بلغ من الاقتدار، لأنه يسبح ضد التيار كما ذكرت، وكان الدكتور يعرف حرجَ موقفه حين قال واصفاً شعوره نحو شعبيّة سعد الكاسحة:

«لقد أُحيط سعد بعد عودته من المنفى بهالةٍ من جلال، امتزج فيها الواقعُ بالخيال، وارتفعت باسم سعد إلى مستوى الأساطير، كانتْ صحفُ الوفد تروي أموراً هي الخرافةُ بعينها، لكنّها كانت تجدُ من يصدقها من الجماهير، قالوا: إنّهم رأوا قرونَ الفولِ نابتةً في إحدى مديريات الصعيد، وقد كتبت الطبيعةُ على بعضها عبارة (يحيا سعد) وقالوا: إنّ طبيباً دعا غيره ليسمع صوت جنين يقول في بطن أمه: (يحيا سعد)، وبذلك انتقل النظر لِسَعْد إلى كونه نبي الوطنية المرسل من السماء، لا أنه زعيم سياسي،

أما وقد كان ذلك فكلُّ مَنْ يخالفه أو يخرج على رأيه ليس خائناً فحسب، بل هو كافر»[1].

في هذا القول ما يرسمُ هولَ المجازفة التي يقومُ بها هيكل في معارضة سعد، وأقولُ هيكل بالذات وإن كان معه كوكبة من كبار الكتاب مثل: (طه حسين) و(محمد توفيق دياب)، و(محمود عزمي)، لأنّه كان أحرصَهم جميعاً على الالتزام بالمنطق فيما يكتب، فلا يسمحُ لنفسه أن يتطرّق إلى اللغو الفاضح، ولا إلى أن يعْبث بالقارئ سائقاً إياه في متاهات الخيال، وكانت دراسته القانونية التي نال بها درجة الدكتوراه ذات أثر في تكوينه الأدبي، فقد استمرَّ محافظاً على رصانة الحجة في كلّ ما كتب، حتى في القصص الفنية التي تجيز للفنان أن ينطلق فيها إلى أبعد مطارح الخيال.

وقد سهّلَ الأمرَ بالنسبة لهيكل كي يَلقى سعداً في أحرج فترات الأزمة الدستورية أنَّ الملك قد أقدم على حلّ البرلمان مرتيْن متتاليتيْن، وَفَرضَ على الأمة حِزباً صورياً لا يمثّل غير أعضائه، ليكونَ الواجهةَ الحسنة في نظر من يصدقون أنّ الحزب اللقيط يعبِّر عنْ مشاعر الأمة، وهذا ما يرفضُه سعد، وما يرفضه الأحرار الدستوريّون معاً، وإذا اتحدت الفكرتان في اتجاهٍ واحدٍ، فقد سهل سبيلُ اللقاء! لذلك حَرص الحزبان معاً على التفاهم.

وكان (محمد محمود باشا) وكيل حزب الأحرار إذ ذاك هو العامل الأول في تقريب وجهتي النظر بين الحزبين، فعرضَ على (سعد باشا) أن يقوم الحزبان باجتماعٍ عام يفسد مؤامرة القصر، وإذا كانَ البوليس سيحُول

---

(١) مذكرات في السياسة المصرية لهيكل: ١/ ١٦٩.

دون هذا الاجتماع، فليكن الاجتماعُ في ساحة قصره المتّسعة بشارع الفلكي، وتحدد يوم ١٩/ ٢/ ١٩٢٦م، للاجتماع في سرادقٍ نُصِبَ بساحة القصر، وتزاحمت الوفودُ من أكثر طبقات الأمة لشهود هذا الاجتماع، وخصَّه أمير الشعراء أحمد شوقي بقصيدة رنانة قال فيها: وكانَ المؤتمر برئاسة سعد زغلول(١):

شَمْس النّهارِ تعلّمي الميزانَ مِنْ ... (سَعْدِ) الدِّيارِ وشيخِها النَضَّاحِ
مِيلي انْظريه في النَّدِيِّ كأنَّه ... (عثمانُ) عن أمِّ الكتابِ يلاحِي
كم تاج تضحيةٍ وتاج كرامةٍ ... للعيْن حولَ جبينِه اللمّاحِ
لبّى أذانَ الصُّلْحِ أوّل قائم ... والصلحُ خُمسُ قواعدِ الإصلاحِ
سبقَ الرجالَ مُصافِحاً ومعانِقاً ... يُمنى السماحِ، وهيكلَ الأسجاحِ
(عدلي) الجليلُ ابن الجليل من الملا ... والماجدُ ابن الماجد المسماحِ
يادارَ محمودٍ سلمتِ وبوركتْ ... أركانُك الهرميّة الصفاح

وبهذا الائتلاف بين الحزبين سهل على هيكل أن يُقابلَ سعداً، وأن يخوضَا في شجونٍ من القول سياسيّة وأدبية، وقد صَوّرَ الدكتور هيكل انطباعاته الصادقة نحو الزعيم في أكثر من موضع من مقالاته المتشعبة، مما يدلّ على أنَّه كان ظامئاً لمجلسه، وأنَّه يجدُ به مِنْ متعِ الفكر ما لا يجدُ في مجالس نظرائه من الزّعماء! إنْ كان له نظراء! يقول هيكل(٢):

«لم تكنْ لي بالرجل قبلَ ذلك صلةٌ شخصية، فلما التقيْنا في المرّات الأولى أُعجبتُ بما عليه الرجل من مقدرةٍ وذكاءٍ، لقد تحدّث الناسُ عنه

---

(١) الشوقيات: ٢/ ١٥٤

(٢) مذكرات في السياسة المصرية: ١/ ٢٥٤.

خطيباً لا نظيرَ له في مصر، ولم يكنْ ذلك بذي بال عندي، فطالما ناقشت في السياسة خطبه، ونقدتُها مرّ النقد، لكنني ألفيتُه محدّثاً بارعاً غاية البراعة، كنتُ أذهبُ إليه في أمور لا يستغرق الحديثُ عنها بضعَ دقائق، فإذا خرجتُ مِن عنده أجدني قضيْتُ ساعةً أو نحوها استمتع بأحاديثَ لا علاقة لها بشؤوننا الحزبية، وهي في أكثر الأمر أحاديثُ عن الماضي، يُسبغُ عليها الرجل من طلاوة العبارة ما يجعلها فناً جميلاً، يَسلك سبيله إلى النفس فيملأها مسّرةً به، واستزادةً منه، وكنت أشعر في حديثه بعطفٍ لا أدري مصدره من نفسه، لكنّني كنتُ أسمعُ الذين يلقونه ينقلون عنه تقديراً أغتبط به، فما تكررت مقابلاتنا، كُنا نتناول بالحديث شؤوناً يختلف رأينا فيها، ثم ننتهي إلى اتفاق، أو إلى أن يتمسّكَ كلٌ منا برأيه».

في هذا القول ما يدلّ على أنَّ الزعيمَ كان يُتابع مقالات هيكل، ويعلّق عليها في مجالسه الخاصة، وإذا كانت هذه المقالات في مجموعها تعارضُ سياسة سعد، فإنَّ التّنويه بها مِنْه في مجلسه يدلّ على عظمة نفسيّة لا توجد إلا عند الصفوة من الكبار، وهذا العطفُ الذي أحَسَّه هيكل في مَجلسه كان باعثَ الإعجاب بقلمه الرصين.

وقد شاعَ في وقتٍ ما أنَّ الزعيم سيُؤلّف الوزارة، ثم رُئي إسنادها إلى (عدلي باشا)، وقبل أن يتم تأليف الوزارة، ويتحدّد الرئيس لها، رأى الدكتور هيكل أن يزورَ سعداً، ويلمس ما يجري بخاطره، فدارَ بين الرجلين حديثٌ رائع، رائعٌ في صدقه وصراحته، وكأنَّ سعداً رأى أنَّ التحفظ مع مفكّرٍ متّزن كالدكتور هيكل لم يَعدّ له أدنى مُوجبٍ، ولنفاسةِ هذا الحديث، ودلالته الاجتماعية والسياسية، سأحاول أن ألمّ به موجِزاً بعض النقاط، لأنَّ النقلَ الكامِلَ لا يتسع له هذا المقام:

يقول الدكتور هيكل[1]:

«ذهبتُ يوماً إلى دارِه حين كانت الأحاديثُ تتناول رئاسة الوزارة، وموقف الإنكليز منها، فلما تبادلنا التحية، وجّه إليَّ القول يسألني: وما أخبارك يا بطل؟

قلت بعد تردد: لا يزال الإنكليز مُصِرّين على أن تُسنَدَ رئاسة الوزارة لعدلي باشا! فأجاب وقد ارتسم على ثغره ما يشبه الابتسامة:

رِزْقي ورِزق رجالي على الله!: وبعد بُرهة صَمْتٍ لا أدري أيّ الخواطر جال بنفسه أثناءها قال:

أوتحسب رئاسة الوزارة أمراً يَغتبط به أحد؟ أو يُحْسد عليه إنسان؟ إنّه في مصر شر مركز، فصاحبه مواجَه بمطالب الإنكليز، وبمطالب القصر، وبمطالب الأمة، وبمطالب الموظفين، وتلك مطالب متناقضة يتعذَّرُ على أبرعِ الناس التوفيق بينها!

قلتُ معترضاً: مطالبُ الموظفين! لم أعرف قطّ أنَّ الموظفين قوة كالإنكليز والقصر أو الأمة يحسبُ لها حساب!

قال: هم شرّ الجميع، وستعرفُ ذلك يوماً إذا قُدّرَ لك أن تكونَ وزيراً، ثم قال سعد: وهل تظنُّ تأليفَ وزارةٍ كبيرةٍ في مصر أمراً ميسوراً، إنّها أشقُّ مهمة!

ورأى الرجلُ على وجهي أمارات الدهشةِ فقال:

أَلِّفْ لي وزارة تجمع عشرة وزراء يكونون في مجموعهم الصورة

---

(١) مذكرات في السياسة المصرية لهيكل: ١/ ٢٥٦.

المرتسمة لمثل هذه الوزارة؟

قلتُ وقد زاد بي التعجّبُ: كيف هذا؟! إنني لا أكاد أصدّقُ ما أسمع!

وكان جوابه إذن، فلنذكر الأسماء، تفضّل

قلتُ: دَولتكم.

قال: شكراً لأني حاضر أمامك، ثم مَنْ؟

قلتُ: عدلي باشا، ورشدي باشا، وثروت باشا.

قال: حَسَنْ، أربعة، ثم مَنْ؟

قلت: إسماعيل صدقي باشا.

قال: نزلنا إلى الدرجة الثانية.

قلتُ في دهشة: صدقي باشا من الدرجة الثانية، كلّا يا دولة الباشا.

قال: لا بأس، علشان خاطرك، ثم مَنْ؟

قلت: وماذا عساي أقول وقد وضَعتَ صدقي باشا في الدرجة الثانية، ومع ذلك فدولتكم أعرفُ برجال البلد مني، وتستطيع أن تكمل العدد.

فقال: أنت تعرفهم كما أعرفهم، وتكتب عنهم كلَّ يومٍ، وتزنُ أعمالهم!

دار الحديث على هذا النحو، ولقد خرجتُ من عنده، وأنا في حيرةٍ أي حيرةٍ لما سمعتُ، تُرى لو أنني ذكرتُ له اسميْ صديقيه القديمين، عبد العزيز فهمي، ولطفي السيد، أفكان يقول عنهما ما قاله عن صدقي باشا».

هذا فحوى حديث سجّله الدكتور هيكل عن سعد، وقد استغربَ أن يكون صدقي باشا في الدرجة الثانية في رأي سعد باشا، وأنا مع سعد باشا ولست مع الدكتور هيكل، لأنّ صدقي باشا كانَ كفاءة ممتازة حقاً، ولكنْ لنفسِه أولاً وليس للوطن، وهو الذي قام ـ فيما بعدُ ـ بأول انتخابات مزورة على وجهٍ سافر، فسنّ سنةً سيئةً أصبحت بعد اقترافه لها وكأنها شيءٌ طبيعي، لأنَّ الخلَفَ مِن بعده يعدونها شيئاً طبيعياً لانشازَ فيه، ولو ضربت الأمةُ ـ أو استطاعت ـ أن تضربَ على يده حين اقترفَ هذا الزيف الفاجرَ، لكان لنا شأن غير ما نعانيه ونقاسي من جمره الأليم.

وقد وقف سعد باشا مِن الدكتور هيكل موقفاً كان المنتظر منه أن يظلّ حاملاً صداه الأليم في نفسه، ولكنّ الدكتور هيكل رجل سياسة، ويعلم أنَّ الزعيم السياسي يرغَم كثيراً على ما لا يود، لأنه رجل جمهور حافل، والمرءُ في أسرته المحدودة لا يتجاوز خمسة أشخاص قد يرغَمُ على كثير مما لا يودُّ، إذ يرى من المصلحة أن تسيرَ الرياح هادئة في بيتٍ يُفترض فيه أن يكون سكناً آمناً، لا مهبّاً للزعازع، فكيفَ بزعيم له أنصاره الذين ينزلهم المنازلَ اللائقة من نفسه، إنَّ رضا الجميع غايةٌ لا تدرَك، ولذلك تأثّرَ هيكلُ من سعدٍ على نحو ما ذكر في قوله[1]:

«حين ائتلفَ الوفدُ مع الأحرار، طلبتُ إلى حِزْبي أن يرشحني في دائـرة (تمى الأمديد) حيث يُوجد كفر غنام بلدي وبلد أسرتي ومسـقط رأسي، وأقرّ الحزبُ ما طلبت، لكنّه رغبَ إليَّ أن أتفاهم مع سعد باشا شخصياً، فدعوتُ بعضَ أهلي المنتمين إلى الوفد، وحدثناه في الأمر،

---

(١) المذكرات: ١/ ٢٦٠.

فكان الرجل معنا في غاية اللطف، وقال: إنّه يقدّر هذا المعنى العائلي الذي جمعنا على رأي واحد، ولكنّه يأسف لأنَّ هذه الدائرة يرشح فيها الوفد، ويفوز مرشحه في كلّ انتخاب، فمن العسير عليه أن يطلبَ إلى هذا المرشح أن يتركَ الدائرة، وشعرتُ من حديثه أنّه لا جدوى من الإلحاح، فتركتُ الأمر له، يختار لي الدائرة التي يشاؤها في القاهرة أو خارجها، على أن يكونَ الرأي الذي يبديه رأيه هو، فعليه تبعته، فابتسمَ الرجل، وقال: أنا إذن أرشحك في دائرة (الجمالية) من دوائر القاهرة، وكان المرشح فيها وفدياً من قبلُ، لهذا حسبت الترشيح جديّاً، وأيقنت أنَّ سعد باشا سيصدر أوامره للوفديّين بمساعدتي، ولكنّه لم يفعل. . . غضبتُ لما حدث، ولم أقابل سعد باشا بعد ذلك قط».

نعم لم يقابل هيكل سعداً قط، لأنَّ القدر المحتوم قد وافاه بعد أشهر لم تبلغ العام، وجزع هيكل للنبأ الصاعق جزعاً غير مفتعل، لأنّه كرّرَ رِثاءه مرتين في أسبوع واحد، تكريراً غيرَ مصنوع، فقد كان رئيساً لتحرير جريدة (السياسة) اليومية، كما كان رئيساً لتحرير (السياسة) الأسبوعية وقد صدر العدد التالي من (السياسة) اليومية شديد السواد، حداداً على وفاة زعيم الأمة، وقد تصدّرَ بكلمة حارة للدكتور هيكل تقف في لوعتها الحزينة إلى جوار ما كتبته الصحف الوفدية بأقلام كتابها الكبار، وقد كانت عاطفةُ هيكل أقوى من أن تحكم بضوابط التفكير المنهجي، فسالت كلماته أسًى ضارعاً ولوعةً ذاتَ نبرٍ حزينٍ، وقد افتتحها بقوله[1]:

«مات سعدُ! فيالَهول الموقف الرهيب! أيُّ رهبةٍ وأيُّ جزعٍ حين تنظرُ أمةٌ، فإذا لسانُها الناطق صَمتَ، وإذا قلبُها الخافِقُ لم يعد يخفِقُ،

---

(١) السياسة اليومية ٢٤ أغسطس ـ آب سنة ١٩٢٧م.

وإذا هذا الذي كانَ على كلِّ لسانٍ وفي كلِّ نفسٍ في مصر، وفي غيرِ مصر من بلادِ العالم كلِّه، إذا سعد زغلول قد طوى الموت صحيفته، وإذا كلُّ الأنظارِ التي كانت تتطلّعُ إليه بالرجاء لم يبقَ لها إلا أن تتطلّعَ إلى السماء راجيةً في رحمة الله ومغفرته العزاء».

وتمضي اللهفة الشاجية حتى تشملَ المقال بأجمعه، وتمرُّ ثلاثة أيام، وتصدر (السياسة) الأسبوعية[1] وفي صدرها كلمة ثانية في تأبين الراحل العظيم بقلم الدكتور هيكل! لو كانت المسألة مسألة مجاملة حزبية لاكتفى الرجل بكلمته الأولى، ولنقلها إلى (السياسة) الأسبوعية كما نقل كلمات العقاد والمازني ومحرر جريدة (الأخبار) ولكنّه بكى الفقيد بكاءً مؤثراً، وصل به ما انقطع من حديث (السياسة) اليومية، وأضاف إلى الكاتب صنيعَ المؤرّخ حين تحدّثَ عن أدوار سعد في الحياة طالباً فمحامياً فقاضياً فوزيراً فزعيماً، حديثَ ذي البصر الكاشف، والذهن المستوعب، والخاطر اللماح.

هذا بعضُ ما يقال عن سعد في مرآة الدكتور هيكل، وقد فاتني من حديث ما أتركه لمقام آخر لوْ أُتيح.

* * *

---

(١) السياسة الأسبوعية ٢٧ أغسطس ـ آب سنة ١٩٢٧.

الكاتب الكبير

من الكُتّاب ـ حتى الكبار منهم ـ مَن نشعرُ حين نقرأُ الموضوعَ الذي يعالجه أنّه يحاول استيفاءه بجهد جاهدٍ، فهو يتلمّس القولَ تلمساً يكادُ أن يكونَ احتيالاً، ومنهم من نقرأ ما يقول: فنحسُّ أنَّ الكاتبَ قد ملك زمامَ الرأي، يوجهه حيث شاءَ، دون أثر للجهد والكدح، والدكتور هيكل قد عُـرفَ بين زعماء الأدب المعاصر بسـيطرته الجادة على ما يتنـاول من الموضوعات.

فهو يسترسِلُ استرسالَ الكاتبِ المقتدرِ، الذي تتدفق ينابيعه من صدرِ جيّاشٍ فسيح، وهو يدهشُكَ بما تتفتق به يراعتهُ من صور خالبة، تكسو المعاني الدقيقة، وكأنّه في كثير من الأحيان شاعرٌ يبدع، أو رسّام يفتنُّ، ولا أعرفُ في الكتـاب من يسترسل استرسـاله غير الدكتور طـه حسين، مع فرقٍ واضحٍ بين الكاتبيْن، فطه يسترسل استرسالاً يحوطه التكرار، ومعاودة المعاني بألفاظ أخرى، ولكنّها تنتهي إلى ما قال، بحيث لا تفقد كثيراً إذا تركت بعض السطور في أحيان كثيرة، ولكنَّ استرسالَ هيكل جديدٌ في كلِّ ما يسوقه، فقارئه يجب أن يكونَ متفتّح الذهن، مُبْصر العين، يقظ الإدراك، ليلحق بالكاتب في مراميه البعيدة، ولعلَّ هذا بعض ما عناه الأستاذ عبد العزيز البشري حين قال في كلمة تكريميّة بحفل أقيم احتفاءً بهيكل[١]:

---

(١) محمد حسين هيكل، للدكتور عبد العزيز شرف، ص٥٩.

«أولُ ما يشعر به محدّث الدكتور هيكل، وقارئه على السواء، هو إبعاده في النظر، وإمعانه في التفكير، حتى يرثي المرءُ له ولأمثاله ـ وأمثالهُ قليل ـ على ما بذلوا في ذلك من جهدٍ، وما عانوا من تعبٍ وكدٍّ في إنفاذ الفكر إلى هـذا الحد، فكيفَ بهم إذا كانوا على هذا في كل ما كتبـوا وما استظهروا؟ وفي كل ما تصوّروا وصوّروا؟ وكيف لعمري احتملتْ أعصابُهم كل هذا؟ وكيف واتتهم الأذهان به على شدة الشحذ والاعتسار في الزمن الطويل؟ والواقع أنّه لا كدّ هناك، ولا إرهاقَ عصب، ولا أيّ حمل على الذهن، إنما هي الموهبة تجلو على أيسر النظر ما يتعاصى، ولو مع الجهد والمطاولة على كثير من الأفكار، وذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء!».

يقتحمُ الدكتور هيكل موضوعه، وقد تسلّح لـه بذخيرة الفـوز، فعناصره واضحة في ذهنه، وصوره تواكب المعاني من غير تصنع ولا افتعال، وألفاظه تتدفق كالسيل وراء معانيه لا يعوقها عائق، ودراستهُ القانونية قد مَهّدت له سبيل المنطق في ترتيب المعاني، فهو يبتدئ بمقدمة كاشفة ذاتِ دلالة، يعرفُ منها القارئ الألمعيُّ ما ينتظر أن يقوله الكاتب الكبيرِ مُجْمَلاً، ثم يأتي العَرَضُ المتدفق كالسيل الجارف، فإذا القارئ يُتابع ما كان ينتظرُ بعضه على وجه التخمين، فيكونُ ما تصوره من قبل قطراتٍ غابتْ في تيّار صاخب ينتقلُ في الخضم موجةً إثر موجة، وما يزال القلم الساحر يجيشُ ويهدر ويتسع وينداح، حتى يبلغَ غايته، فتأتي الخاتمةُ دقيقةً مركّزةً لخلاصة ما يعنيه الكاتب الكبير.

هذا في المقال الموضوعي، أمّا المقال الذاتي حين يصف الكاتبُ رحلةً، أو يصوّر مشهداً من مشاهد الطبيعة، أو يكشف عاطفةً صادقةً

مارت في صدره، وأرادَ أن ينقش بعض ما يجد منها بما يريق على السطور من إبداعٍ، أما ذلك كله فقد عناه الأستاذ خليل مطران حين قال في بيان الدكتور هيكل[1]:

بيـــانٌ مـــا تشـــاءُ تصيـــبُ مِنْـــهُ سـرورَ مُسـاهِـمٍ، وأَسَـى قسيـمِ
تـــزُور بـــهِ ديـــاراً لـــم تَـــزُرْهـــا مُلمّـــاً بـــالمُقـــامِ وبـــالمُقيـــمِ
فتشهـــدُهـــا وتعـــرِفُ ســـاكنيهـــا كـأنّـك فـي الـديـارِ مـن الصَّميـمِ
وتستـــدْنـــي الجنـــانَ مُنـــوّراتٍ تفـــوحُ بهـــنّ أعـــرافُ النعيـــمِ
يلطّفُهـــا وبـــالتلّطيـــف تـــزكـــو فتفضـلُ كـلَّ طيـبٍ فـي الشميـمِ
وتفتقـــدُ الأســـى مـــن كـــلّ قلـــبٍ بحيـثُ قـرارةُ الجُـرحِ الكليـمِ
وتنظـــرُ فـــي الســـراءِ والطـــوايـــا ممحّصَـةَ الحميـدِ مـن الـذَّميـمِ
فـــلا تخفـــى عليـــك أدقّ شـــيءٍ يجـولُ بخـاطـرِ العـانـي الكظيـمِ
وتـــرعَـــى مـــا النفـــوسُ بـــه تنـــاجَـــي بـأخفـتَ مـن منـاجـاةِ النسيـمِ
هو الوصفُ العجيبُ ولست تلقى لـه وجهـاً سـوى الـوجـهِ القسيـمِ

وكلام مطران دقيق المغزى، لطيفُ الإيماء، يحتاجُ إلى معاودة تكشف بعيد مراميه، ولكنّه بعد اجتلائه تصويرٌ لحقيقة هذا القلم الصناع.

وأعجب ما راقني في تأملات الكاتب الكبير أنّه لا ينخدع بالمظاهر البراقة فيما يرى من حضارة زائفة هي طابع أوروبة، فهو يسبرُ هذه الحضارة في ضوء ما انتهت إليه من زلزال مدمر في حربيْن عالميتيْن، طاحت بملايين الأرواح، ويؤكد أنَّ الحضارة المادية هناك لا تصلحُ للشرق! هذا العالَم الذي أهدى للإنسانية رُسلَ الله، وارتفعَ بالإنسان عن شهواتِ المادّة

---

(١) ديوان مطران: ٣/ ١٧٤.

الضيقة إلى رحابة الروح في سبْحها المؤمن البصير.

ويعيبُ على هؤلاء الذين جعلُوا الغرب مهوى نفوسهم، وموطنَ احتذائهم لما يعشقونه من جَواذب المادّة، وطماعية الشهوة، وإغراء الجنس، يقول الدكتور هيكل في صدق مؤثِر[1]:

«ما عسَى أن يكونَ المثل الأعلى؟ أعتقدُ أنَّ الشرقَ ضلَّ طريقه في هذه العصور الأخيرة، متأثّراً بتعاليم الغرب، فأصبحَ مثله الأعلى ماديّاً، يحسبُ حرّيته في أن ينالَ الجسمُ وأن تنالَ الشهواتُ كلٌّ مبتغاها، وقد يكون للبيئة الطبيّعية في الغرب، ما يدفعُ إلى التطلع إلى هذا المثل الأعلى، لكنّ بيئة الشرق الطبيعيّة، وتاريخه منذ العصور الأولى، وتاريخَه بنوع خاص منذ انتشرت الحضارة الإسلامية في رُبوعه، يجعل هذا المثل الأعلى الذي يتخذه الغرب أمامَه دون ما تتطلع إليه النفسُ الشرقيّة، فهذه النفسُ تؤمن بوحدة الوجود، وترى في هذه الوحدة والاتصالِ بها غاية ماترجو، ولذلك كانت أمثال هذا الشرق تجري بأنَّ من اعتزّ بغير الله ذل، ومن افتقر لغير الله هان، ولا تعرف شيئاً في الحياة يُعادل تقوى اللهِ؟».

ووحدةُ الوجود التي يشيرُ إليها هيكل ليست هذه الوحدة المعروفة عند المتصوّفة، فهي سفسطة كاذبة، لا تؤدي إلاّ للباطل الزائف من الشطحات! أمّا الوحدةُ التي يَعنيها فهي انتظامُ الكونِ في نسقٍ رتيبٍ من الإبداع الإلـهي، وخضوعه جميعه لسيطرة فاطرِ السماواتِ والأرض، وهذا إيجازٌ يحتاجُ إلى إسهابٍ، قد يجد موضعه في غير هذا السياق.

وفي هذا الأفق الرحيب، اندفعَ الدكتور هيكل في مقالٍ تالٍ،

---

(١) مجلة الهلال، ١/ ١١/ ١٩٣٣م.

للحديث عن أوهام الغربِ، حين رأى فلاسفته أنّ عبادة الطبيعة تُنزِلُ الأمنَ على النفوس، ثم بدا لهم أن يتّجهوا إلى عبادة المادة الاقتصادية، فزادت حياتهم دماراً وفساداً، ولم يُفد الحلّ الاشتراكي شيئاً في علاج ما نلمسُه من بؤس وشقاء! هنا بعدَ خيبة هؤلاء وأولئك، ذَهبَ بعضُ الأوروبيين أنفسهم إلى الشرق، يلتمسون الهداية في ضوء شمسه.

يقول الدكتور هيكل[1]: «إنّ النفسَ في حاجةٍ إلى الرخاءِ في غذائها الفكريّ والعاطفيّ، كحاجة الجسم إلى شيءٍ من النعيم في حياته الماديّة، لذلك اندفعَ فلاسفة الغرب وكتّابه وأدباؤه يلتمسون هذا الغذاء النفسيَّ في أديان الشرق، وصُور الإيمان فيه، والأدبُ بوصفه مظهراً للحضارة، لا غنى له عن تجلية جانب الإيمان في النفس، كما يجلُو جانبَ العواطف المختلفة، ولا غِنَى له عن أن يُحلِّلَ هذا الجانب، ويصفَ أثره في الحياة، وجانبُ الإيمان في بلاد الشرق العربي قويٌّ أيّاً كان الدينُ الذي يدين به الشرقيّون، وقد كانَ الإسلامُ وما يزالُ دينَ أهلِ هذا الشرق العربي، إلا الأقلين منهم، فلا يمكنُ أن يؤدي الأدبُ رسالته إذا أهملَ هذا الجانب القويَّ من جانبِ حياة الشرق العربي.

ولم يكن ذلك الخاطر لدى الدكتور هيكل خاطراً عارضاً، بل كان خاطراً مِلحاحاً، كتبه في مقدمة كتابه (ثورة الأدب) ثم كررَّه في خاتمة الكتاب بإشباعٍ وإمتاعٍ! وكان ذلك كله قبل أن يظهر للناس كتابُه الخالد (حياة محمد) فهل كانت هذه الخواطرُ الشريفة بعضَ البواعث الدافقة إلى تأليف هذا الكتاب العظيم، لأنَّ صاحبَ السيرة المطهّرة، أرقى نموذجٍ بشريٍّ للإسلام!

---

(١) ثورة الأدب، ص١٢، المقدمة.

وعلى هذا الوتر المؤمن تَوالَى الإيقاعُ الشجي في مقالات كثيرةٍ للدكتور هيكل لم يجْمع أكثرها في كتب مستقلة، ولكنّها تفرّقت في أنهار الصحف والمجلاّت، ومن أهمّها ما كتبه في مجلة الهلال (فبراير سنة ١٩٣٤م) تحت عنوان (ما وراء المدنية الحديثة) حيث أبانَ عن خلوٍّ هذه المدنية من طُمأنينة النفس، وسكينة الروح، وأعلنَ يأسَهُ من أن يكونَ الغربُ في إطار هذه المدنية عاملَ سكينةٍ واطمئنانٍ، إنّما الشرقُ بمُثُله الدينية هو الأملُ المنتظرُ، لأنّه مهدُ الأنبياء، ومطلع النور.

وإنّ ما كتبه الدكتور هيكل في هذا المجال جديرٌ بالذيوع، فالعالم الآن يعيش أقْسى فترات التحلّل الخلقي، تحلّلاً لم تخجل فيه مؤتمراتُ المرأة إذ تبيح الشذوذ الجنسي (اللواط) وتجعل منه أمراً مشروعاً! فأيُّ ارتكاسٍ وَضيعٍ انتهى إليه هذا العبثُ الواضحُ الفاضح!

وقد ارتحل الدكتور هيكل إلى جوار ربه، قبل أن ينتشرَ هذا الوباء! فكيفَ به إذا عاش حتى تفجأه هذه الموبقات!!

بقي أن أتحدّثَ عن مقدرة الكاتب في تحليل الشخصيات التاريخيّة المعاصرة، إذ له اتجاه متميّز يسوق الحقائق في نمطٍ من التحليل المقتدر، مع اتساع الصدر للنظر المخالف، ومحاولة الردّ عليه في احترامٍ تفرضه الحقيقة العلمية ذاتها، قبلَ أن تفرضه آداب البحث والحوار، وله رحمةٌ حانية على مواقف الضعف الإنساني، التي لا يخلو منها بشر، إذ عهدنا بكثير من الكاتبين أن يتلمسوا موضِعاً من مواضع الخطأ، ليَنْهالوا على صاحبه طعناً وتجريحاً، وكأنّهم تجاهَ عدوٍّ لدود، ولستُ أدعو إلى تجنّب الحديث عن الأخطاء، فهذا ما يَحيفُ بحقّ التاريخ، ولكني أدْعُو إلى عرض الخطأ في ظُروفه وملابساته، دون افتعال في اختلاق التبْريرات

الموهومة، بل تكون الحقيقةُ وحدها هي الهدف المراد، وهذا ما نلمُسه لمساً فيما كتب الدكتور هيكل، ولعلَّ مما أعجبني فيما تناوله من هذه الشخصيات ما كتبه عن الفقيه الحجة الصبور (محمّد قدري باشا) إذ كان أوّل من كتب الفقه كتابةً عصرية تَشوّق الدارسين، إذ جَعله موادّ قانونية تتّفق وما تُصاغُ بـه مواد الأحكام الوضعيـة في نمطها الشـكلي فحسب، وتلك ضرورةٌ ملزمة، كانتْ أوّل خطوة في طريق هذا العمل الخصيب الجاد، وقد بَحثْتُ عمّن أرّخ لهذا الرجل الجاد تاريخاً مستوعباً دقيقـاً، فلم أجد غير سطور مشرقة كتبها الأسـتاذ عبد الرحمن الـرافعي مشـكوراً في تاريخه عن عصر إسماعيل، ولكنْ الدكتور هيكل قد قـدّرَ ما قام به الرجل الكبير من عملٍ جاد، فتحدّث عن مآثره حديثاً أنقُل بعضه لحاجةِ القارئ أن يلّم به، إذ أُهملت جهود هذا النابغة إهمالاً كان موضع العجب الشديد، وعجيبٌ أن تكثر المؤلفات المتكررة عن علم واحد، إذ ينقل اللاحق عن السابق دون تجديد، ثم لا يحدّثُ باحثٌ نفسه بالوفاء لهذا الفقيه النابه، أَفَلوْ كانَ قد كتب مؤلفاته الثلاثة العظيمة في موضوع غير موضوعات الفقه الإسلامي أما يَجدُ الإشارةَ من كثيرين، وسأنقل للقارئ مقدمـة الدكتور هيكل في حديثـه القيم عن (قدري باشـا) حين قال[1]:

«من الكُتب ما ينبه ذكره، ويعظم أثره بمقدارِ ما يجني على ذكر المؤلف، حتّى ليكادَ يعفّي على خبره، من هذا الطراز كتُبٌ ثلاثةٌ ما يَغيب اسمُ واحدٍ منها عن ذاكرةِ محامٍ ولا قاضٍ ولا طالبِ حقوقٍ، ولا رجلٍ من رجال الشرع الإسلامي، هذه الكتب الثلاثة هي: (مرشد الحيران إلى معرفة أحوال الإنسان) في المعاملات الشرعية على مذهب أبي حنيفـة

(١) تراجم مصرية وعربية، ص١٠١.

النعمان، وكتاب (الأحكام الشرعية في الأحوال الشخصية)، وكتاب (قانون العدل والإنصاف) للقضاء في مشكلات الأوقاف، بل إنّ معرفة هذه الكتب لا تقف عند رجال القانون والشرع، بل تمتّد كذلك إلى عدد عظيم من سواد الناس، فقد نظمت ثلاثتُها أحكام الشريعة على مذهب أبي حنيفة، في تقنين يفي بحاجة من يهمه الوقوف على هذه الأحكام، إذ يجدُها مبوّبة مرتّبة مدقّقة، في اختيار ألفاظها حتى تغني مدلولاتها على صورة من التجديد الدقيق، الذي يقضي به فنّ الفقه القانوني.

وهذه الكتب هي الأولى والأخيرة في بابها، كان ذلك منذ قرن وربع، ولا يزال أثرُها بارزاً مع وجود من حاذاها من المؤلفين، ولذلك نَبُهَ ذكرها، وعظم أثرُها، وتناول الناس ما بها من الدراسة، فإذا سألت أكثرهم عن واضعها قيل: إنه هو قدري باشا، لكنّ أكثر الناس لا يعلمون عن قدري باشا إلا اسمه، وإلاّ أنه واضعُ هذه الكتب الثلاثة، وقد يكونُ ذلك كافياً لتاريخه، فهذه الكتبُ الثلاثة هي في الحق أثرٌ كاف لتخليد واضعه، وإذا كان نابليون قد جعل من قانونه المدني عنوان مجده، واعتبر ما أوتي من النصر بجانبه مجداً ثانوياً، فكُتُب قدري باشا في تقنين أحكام الشرع عنوان مجد باق على الزمان».

هذه مقدمة أصيلة مهّد بها هيكل لما كتبه عن تاريخ الرجل الحافل، وأشهدُ أنَّ الورقات التي كتبها هيكل بتحليلها الموضوعي مع حرارتها الصادقة، تُغني عن كتابٍ كاملٍ في حياة هذا الفقيه العظيم.

وأنا أتساءل إلى متى يتكرّر إهمال أعلام التشريع والأصول في دُنيا العبث واللهو؟!! إننا نعرف عدة كتب بلغت العشرة سُطّرت في حياة مطرب ليس من مُطربي الصف الأول! وقد راجت رواجاً هائلاً، وكأنّها

تتحدّث عن بطل أنقذ الإنسانية بما اكتشف من وسائل العلاج! أفما كان في مقال هيكل ما يلفتُ الأنظار إلى كتابة مؤلَّفٍ مستقل عن هذا النابغة العريق؟

وتتابعُ التراجم الوضيئة بقلم هيكل في كتابه (تراجم مصرية وغربية) وفيها من الصدق البالغ، والقوة الساطعة، ما ينبئ عن حقيقة ملموسة! هي أنّ المسألة في التأليف ليست مسألة كمّ فحسب، لأنّ ما كتبه هيكل مثلاً في عدة صفحات عن أمثال محمد قدري، ومصطفى كامل، وإسماعيل صبري، وعبد الخالق ثروت، يكفي القارئ، إذ لا يجد في كثير من المطوّلات ما يجده في هذه التراجم الموجزة، وأقول في كثير، لأنّي لا أبخسُ حقَّ المجيدين من كتّاب التراجم الذاتية ذات الموضوع الواحد، وهم معروفون مشتهرون!

هذا، وأكثر مقالات هيكل في جريدتي (السياسة) الأسبوعية واليومية لم تنشر بعدُ، وقد كانَ هو من بواعث إهمال هذه المقالات، ولعلّ نظرته إلى المقالِة السياسية باعتبار أنها صَدًى مؤقت لحادث يمضي ولايتكرر، قد جعلته بعيداً عن التفكير في جمعها، ولكنْ ما بال المقالات الأدبية والنقدية والاجتماعية، وهي ذاتُ حظّ موفور من اهتمام الكاتب لم تجد احتفالاً بها، وهي تأريخٌ لواقع فكري واجتماعي وأدبيّ ينشده الدارسون، وقد اعترفَ الكاتب الكبير في مقدمة كتاب (التراجم) أنَّ بعض ما كتبه لا يفي بحقّ المكتوب عنه إيفاءً تاماً.

واعتذرَ عن ذلك بأنّه أراد أن يضع صورة تقْريبيّة لحياة مصر في هذا العصر، على أن يقفَ في ترجمته عند الوقائع الثابتة، وأن يتجنب المغامرة في الفروض والظنون، حتّى لا يتعرّضَ ما يكتبه إلى نقد يفسدهُ، وإن

أمكن أن يُوجد لديه نقص كثير!

وأنا وقد قرأتُ ما كتب الرجل أعرفُ أنه تواضع كثيراً حين ذكر أنّ النقْص كثير، لأنّه اختار من الوقائع المُهمة ما يُغْني عن جزئيات قد لا يكون لها صدى قوي في الحكم النهائي على الشخصّية المتحدَّث عنها، وهذا ما أراه على وجه الترجيح لا اليقين.

* * *

إلى الفكر الإسلامي

حين اتجه الدكتور هيكل إلى معالجة البحوث الإسلامية، وفي مقدمتها كتابه الخالد (حياة محمد) لم يُطق العلمانيّون صبراً على هذه الشجاعة الحرّة التي بعثت كاتباً عرف الحقيقة بعد بحثٍ وتمحيص بَعثتهُ إلى أنْ يكون جُندياً من جنود الفكر الإسلامي، باذلاً جهده الجاهد في الحديث عن مبادئ الإسلام وأبطاله، فأَطَالوا اللّجاج حولَ هذا التحوّل الباهر، واختَلقُوا من الأوهام ما قَدْ دَفَعْتُهُ دفعاً في مقالاتي المتعَدّدة عن الدكتور هيكل، ومِنْ بينها ما كتبتُه في كتابي (النهضة الإسلامية من سير أعلامها المعاصرين) حيث قلتُ ما أستريح الآن لنقله إذ دَعَا السّياقُ التحليلي إلى تَرديده مُجابهةً لقوم ينكرونَ الحقائق أشدّ ما تكونُ سطوعاً أمامَ العيون فزعمُوا أنَّ الكسب الماديّ، والرّواج الشعبيّ بِكُتُبِ السيرة هو دَافِعُه إلى كتابةِ سيرة الرسول ﷺ! وياله من زعم رخيصٍ! لقد قُلت[1]:

«لقد كانَ الدكتور هيكل زعيماً من زعماء الأدب في عصره، وكانَ اسمه يسير سير الشمس في الشرق العربي، قبل أن يتّجه إلى دراسة التاريخ الإسلامي، فكَيف يحرصُ على الرّواج والاشتهار من انتشر صيتُه، وقام على تحرير أكبرِ صحيفةٍ أدبيّةٍ في عصره؟ كيف يتطلّب المكسب الماديّ، ومكانتُه في السياسة اليومية، ومن حِزْبه السياسي، ومِن رواج مؤلّفاته مما

(١) النهضة الإسلامية: ١/ ٤٩١ وما يليها، طـ دار القلم بدمشق.

يُجْبى إليه المالَ دون حساب فوق ما ينعمُ به من ميراثِ أبيه معَ ما يُقرّ به عارفوه من نبل ترفّعه، وشدّة إبائه؟!

لقد عزّ على هؤلاء ذُيوع كتاب (حياة محمد) ﷺ دون أن يملكوا من النقد العلمي النزيه ما يضائل من لآلائه، فكان قصاراهم أن يتركوا الكتاب الرائع إلى أراجيف يعرفون قبل القراء مبلغ تهافتها الوضيع!».

وها أنذا أتابع حياة هيكل الثقافية متابعةً واعيةً، لنعرف كيف انتقلَ من اتجاه إلى اتجاه، بل لنعرفَ كيف كان صادقاً أميناً حين آثرَ اتجاهاً على اتجاه، وفي ذلك ردٌّ قاطعٌ على مِن يُلْبس الأشياء غير أثوابها، فيتعلل بالكسب المادي تارةً، وبحبِّ الاشتهار تارةً أخرى، وهو يعلمُ في أطواء نفسهِ أنه يختلِقُ القول اختلاقاً، إذ بدت البغضاء منه مُترجمةً فيما قال، مترجمةً عن صدْر محترق، وباطن دخيل.

لقد ذهب الدكتور هيكل إلى فرنسة في أوائل هذا القرن بعدَ أن أتمّ دراسته في مدرسة الحقوق بمصر، وكانَ بريقُ الحضارة الأوروبيّة حينئذٍ يخطفُ أبصارَ كثير من الشباب المسلم، إذ ينظرون فيجدونَ دُوَلهم الإسلامية ترزح تحت نير الاستعمار، وقد جُنّدت الأقلامُ المأجورة لتصِفَها بالتأخر والغفلة والجهل، ولتجْعلَ الإسلام وحدهُ علّةَ العلل في تأخّر هذه البلاد، إذ هو في زعمهم عدوّ العقل، وموطنُ الخرافة، وذو شريعة بدوية قاسية، لا تلائم عُهود الحضارة والتمدن، فهي إذن العقبة الكأداء في كلّ إصلاحٍ يُراد، أما الغرب بحضارته وفلسفته وحريته فهو في رأيهم قائدُ الإنسانية الحقيقي، وباريسُ مدينة النور، قِبْلةُ هذا التقدم، إذ هي صاحبة الوعود الأولى إلى الحريّة والإخاء والمساواة! وهيكلُ الشّاب يقرأُ ذلك، وينظرُ فيما حوله بباريس، فيتأثّر بما يقرأ، ويندفعُ بقلمه إلى تمجيد

ما يرى، ويتّخِذُ من أُدباء فرنسة ومفكريهم موضعاً لتحليله الأدبي في مقالاتٍ يرسلها من الغربْ إلى الشرق، كما خصّ (جان جاك روسو) بمقالاتٍ تحليلية كانتْ نواةً لما كتبه عنه من دِراسة جامِعيّة مُستقلة، حتى إذا حصلَ على الدكتـوراه، ورجع إلى مصر، سـارعَ بالدعوة إلى المثل الأوروبية مع طائفة درست دراسته ونزعت نزعته! مع الإشاحة كل الإشاحةِ عن التراث الإسلامي، الذي تضمه الكتب الصفراء!.

ظلّ القوم يهتفون بمُثُل الحضارة الأوروبية، حتى قامتِ الحرب العالمية الأولى بِدواهيها المروّعة، إذحصدت عشراتِ المدن بما تضمّ من أرواح ومنازل وميادين، وتركتْ وراءها بعدَ أن أفنتِ الملايين حشوداً من الأرامل واليتامى والمشوّهين.

وقد دافعَ قومٌ عن فرنسة وإنكلترة بأنّهما لم تُعْلِنا الحربَ، بل اضطُرّتا إليها اضطراراً، ولكنّ هذا الكذب المريب ظهر عواره حين تحدّتْ هاتان الدولتان مطالبَ الأمم المستعمَرة، وكرّرتا انتهابَها انتهاباً كبعض الأسلاب، أينْ إذن مدينةُ النّور ذات التقدم الإنساني؟! أين إنكلترة ذاتُ البعثِ الحضاري؟! أين ما أذاعوه أثناء الحرب عن ضرورة حرية الشعوب واستقلالِها دون احتلال؟! كلّ ذلك قد صار هباءً، فاتّضح زيفُ أوروبة، وما تزعمه من ارتقاء!.

وكانت الاكتشافات الأثرية لمقبرة (توت عنخ آمون) مما أثارَ انتباه هيكل إلى الحضارة الفرعونية القديمة، فَعَدّها السبيل إلى بَعثْ الروح المصرية حين يَذكرُ المصريون مفاخرَ الأجداد، وانتقلَ من الدعوة إلى الحضارة الأوروبيـة إلى **الدّعوة إلى الحضارة الفرعونية**، وكتبَ في ذلـك مقالاتٍ كثيرة ضاعتْ في أنهارِ الصحف، وبقيَ منها ما سجّله في (تراجم

مصريّة وعربية) وفي (في أوقات الفراغ) وفي (ثورة الأدب) ومما قاله في هذا الصدد نقلاً عن أحد أعداد (السياسة) الأسبوعية سنة ١٩٢٦م: «لا سبيلَ إذن إلى إنكارِ ذلك الاتّصال النفسي الوثيق، الّذي يربط تاريخَ مصر منذُ بدايته إلى عصرنا الحاضر، وإلى آخر العصور المستقبلة الّتي يُمكن أن يعرفها التاريخ، ولئن تبَدّلَتْ أسبابُ العيش ما تبدّلت، ولئن قرّبت سكك الحديد والبواخر والطائرات وكلّ ما يمكن أن يتمخض عنه خيالُ العالم من وسائل المواصلات بيْن أجزاء شتّى، فسيَبْقى هذا الاتصال النفسي الوثيق، الّذي يجعل من مصرَ وحدة تاريخيّة أزلية خالدة، فمِن حق المصريين، ومن الواجب عليهم، أن يسْتثيروا دفائن الفراعنة، وأنْ يربطوا حاضِرهم بماضيهم رباطاً ظاهراً لكلِّ عين».

أخذَ هيكل يوالي مقالاته في هذا الاتجاه، وهو صاحبُ جريدةٍ أدبيّة لامعـةٍ، تعتبرُ الجريدةَ الثقافية في عصرها، فجذب إليه نفراً من الكُتّاب، لا أتحدّث عن أسمائهم، إذ كفى ماجَنَوْه على الفكرِ من تُرّهات، وبعضُهم كانَ صادقاً بينه وبين نفسه، وبعضُهم اتّخذَ العِداء للإسلام هَدفاً يصلُ إلى التنفيس عنه بِذمّ الحضارة الإسلاميّة، والإشادة بالحضارة الفرعونية.

وامتدّ اللجاج زمَناً طويلاً، إذ تصدّى لهؤلاء المتحمسين فريقٌ عاقل من دعاة الوحدة العربية باعتبارِها طريقاً للوحدة الإسلامية، وقد قَدَّرتُ في غير هذا الكتاب جهودَهم المؤمنة، ولئن كانت كلمات (مصطفى صادق الرافعي)، و(محب الدين الخطيب)، و(عبد الرحمن عزام) في هذا المجال ذات طابع حارّ متّقد، فإنّ ما كتبَه الأستاذ الكبير (أحمد حسن الزيـات) بأسـلوبه الهادئ، وبيانه المتـزن، صادفَ موضع الإعجاب والتقدير، وأذكرُ أن صُحف المطالعة المدرسية في مصر والبلاد العربية

جَعَلتْه من مختاراتِها الرائعة حيث قال تحت عنوان (فرعونيون وعرب)[1]:

«هذه مصرُ الحاضرةُ تقومُ على ثلاثةَ عشر قرناً وثُلثاً من التاريخ العربي نسخَتْ ما قبلها، كما تَنْسَخُ الشمسُ الضاحية سوابغَ الظّلال، وذلكَ ماضي مصر الحيّ، الذي يصيحُ في الدم، ويثورُ في الأعصاب، ويدفعُ بالحاضر إلى مستقبل ثابت الأسّ، شامخ الذرى، عزيز الدعائم.

أزْهِقوا إنْ استطعتُم هذه الروح، ثم انظروا ما يبقى في يد الزّمان من مصر؟ هل يَبقى غيرُ أشلاءٍ من بقايا السّوط، وأنضاء من ضحايا الجوْر، وأشباحِ طائفـةٍ تُرتّل (كتاب الأموات) وجباهٍ ضارعة تَسجد للصخور، وتعنو للعجماوات، وقبورٍ ذهبيّة الأحشاء، ابتَلَعتِ الدّور حتى زَحمت بانتفاخِها الأرض . . وهلْ ذلك إلا الماضي الأبعد الذي تُريدون أن يكونَ قاعدةً لمصر الحديثة . . إنّ مصر القديمة دفينٌ فَنيتْ روحُه مع الآلهـة، وصحائف موتٍ ذهبَ سِرّها مع الكهنة، والخامد لا يَبعث حياةً، والجامِدُ لا يلد حركةً! .

لا تستطيع مصرُ الإسلامية إلا أن تكون فصْلاً من كِتابِ المجد العربي، لأنّها لا تجدُ مدَداً لحيويّتها، ولا سنَداً لقوّتها، ولا أساساً لثقافتها إلاّ في رسالةِ العرب، أما أن يكونَ لأدبها طابَعهُ ولِفنّها لونه، فذلك قانون الطبيعة، ولا شأن (لمينا) ولا (ليعْرب) فيه.

انشروا ما ضمَّت القبور من رُفات الفراعين، واستقروا من الصخور الصلاب أخبارَ الهالكين، ثم تحدّثوا وأطيلوا الحديثَ عن ضخامة الآثار،

---

(١) وحي الرسالة: ١/ ٥٠، للأستاذ الزيات.

وعظمة النيل، وجمالِ الوادي، وحال الشعب، ولكن اذكروا دائماً أنَّ الرّوح التي تنفخونها في مومياء فرعون هي روحُ عمرو، وأنّ اللسان الذي تنشرون به مجدَ مصرَ هو لسان مضر، وأنّ القيثار الذي توقّعون عليه ألحانَ النّيل هو قيثـارُ امرئ القيس، إنما تتفاضل الأمم بما قدّمت للخليقـة من خير، وتتفاوت الأعمال بما أجدتْ على الإنسان من نفع، أليسَ (الخزّانُ) خيراً من (الكرنك)؟ و(الأزهرُ) أفضل من (الأهرام)؟ و(دار الكتب) أنفس من(دار الآثار)».

هذا مقطع الـرأي فيما أُثِير عجاجـه دون حاصل سـوى الفرقعـة والصخب!.

وأعود إلى ما كتبتُ عن هيكل فأكرر قولي: لما كان الدكتور هيكل في صميم روحه طالَب حق يرتاد كلّ سبيل ليجد منافذَ النور، فقد أدركَ بعينيه إخفاق الدعوة الفرعونية، وتأكّد أنَّ طنينها لا يبلغُ الآذان، فأخذَ يبحث من جديد عن أقومِ السبل لبعثِ الأمة العربية، فوجد ضالته المنشودة في تاريخ العرب ومجد الإسلام، فاتجه بخالص جهده، بعد أن اسْتحصَدَ فكره، واتّسع أفقه، وعمق تجريبه، إلى الدراسات الإسلامية، مبتدئاً بسيرة رسول الله ﷺ، ومعقّباً بسير الأعلام من أمثال: (أبي بكر الصديق)، و(عمر بن الخطاب)، و(عثمان بن عفان)، ثم ببحوثٍ تدور في فلك التاريخ الإسلامي، والفكر الديني القويم.

وهو من خلالِ حديثه عن خلفاء رسول الله ﷺ يتحدّث عن: (خالد بن الوليد)، و(أبي عبيدة بن الجراح)، و(المثنى بن حارثة)، و(سعد بن أبي وقاص)، وغيرهم من أبطال الفتح الإسـلامي كـ(النعمان بن مقرن)، و(القعقاع بن عمرو التميمي) بما يدلّ على غَيرةٍ إسلامية يدعمها إخلاصٌ شديد للحقيقة، وصدقٌ بالغ في الأداء، ولو تنفّس به العمر لكتبَ عن

(علي بن أبي طالب) كرم الله وجهه كتاباً برأسه كما فعلَ مع سابقيه .

وكيلا يظن القارئ أننا نستنتج القول استنتاجاً شخصياً، دون أن تكونَ مُقرّراتهُ واقعاً ملموساً من حياة الدكتور هيكل، فإني أتركهُ يتحدّث عن نفسه حين يقول ردّاً على من يخفى عليهم جوهر الحضارة الإسلامية، فيتخبّطون في اتجاهاتٍ تتعارض وتتصادم، وذلك نقلاً عن مقدمته الرائعة لكتابه (في منزل الوحي)[1] :

«لقد حاولتُ أنْ أنقل إلى أبناءِ لُغتي ثقافةَ الغَرْب المعنويّة، وحياته الروحيّة، لنتخذها جميعاً هدًى ونبراساً، لكني أدركتُ أنّي بعد لأيٍ أضعُ البذر في غير منبته، فإذا الأرض لا تتمخّض عنه، ولا تبعث الحياة فيه، وانقلبْتُ ألتمس في تاريخنا البعيد، في عهد الفراعنة موئلاً لوحي هذا العصر، ينشئ فيه نشأةً جديدة، فإذا الزمنُ، وإذا الركود العقليَّ، قد قطعا ما بيْننا وبين ذلك العهد من سبب قد يصلحُ بذراً لنهضة جديدة، وروَّيت فرأيتُ أنّ تاريخنا الإسلامي هو وَحده البذرُ الذي ينبت ويثمر، ففيه حياة تحرك النفوس، وتجعلُها تهتز وتربو، ولأبناءِ هذا الجيل في الشرق نفوسٌ قوية خصبة تنمو فيها الفكرة الصالحة لتؤتي ثمرها بعد حين» .

لقد أجملَ الرّجلُ تاريخ نضاله الفكري في خطوات ثلاث، وضّحها تمامَ الوضوح، وبيّن أثر كلِّ خطوة في نفسه، وما انتهى إليه من سيرٍ هادٍ مستقيم .

لقد كان كتابُ (حياة محمد) وماتلاه من كتب الشخصيات الإسلامية، فاتحةَ سيلٍ دافقٍ من الكتب التاريخية تنحو منحى المؤلف

---

(١) في منزل الوحي، ص٢٤ .

الكبير، وأكثرها مما دارَ في فلكه، وسار على طريقِ عبّده قلمُ الدكتور، وفي الكاتبين من ملأهُ الرضا، وغمرَتْه الغبطة، فاعترف بفضل الدكتور على موضوعه، واقتبس منه، وهمُ الكثرة بحمد الله، وفيهم من عزّ عليه أن يجدَ الفرق شاسعاً بين ما كتبَه وما أبدعه هيكل مع تأخّره عن زمنه في التـأليف تأخراً كان يحتّم عليه أن يُضيف الجديد، فأخذَ يُمسـك عصا الأسـتاذية، لينبّـهَ عنْ خلافٍ في الرأي في نقطة تحتمل الخـلاف، ثم يتشامخُ ويستعلي، كأنّه أصابَ موضع السموق، وما ظنّك بأحد هؤلاء حين يكتب كتاباً عن رسول الله ﷺ، ويتعرّض في المقدمة لكتاب (هيكل) قائلاً: «إنه يُمثّل مرحلةً فات أوانها، وانتهت إلى غايتها»!!

هذا المتعاظم يجبُ أن نسـأله: أيّ مرحلـة فات أوانها؟ أَلِكُتُبِ السـيرة مراحل تنتهي عندها، فلا يجوز لنا مثلاً أن نقرأ (سيرة ابن هشام)، ولا ما كُتب بعدها باعتبارها كتابة مرحليّة! وهل للحديث عن رسول الله ﷺ حدّ معلوم من زمن معلوم، فإذا انتقلْنا إلى زمن آخر وجب أن نهمل ما كُتب من قبلُ!! لقد قال الأستاذ (محمد فريد وجدي) وهو ممن لا يبلغ هذا الناقد مرتبة تلاميذه: إنّ ما كتبه هيكل يضمُّ صفحات كتب لها الخلود، بما أبدع ووجّه وعلّل! أفيجيء مؤلِفٌ يجمع الروايات كيفما اتفق ليقول: إن كتاب (حياة محمد) يمثّل مرحلةً فات أوانها!.

لقد توجّه هيكل إلى كُتب التراث الإسلامي جميعه، لا كتب التاريخ وحده، كُتب التفسير والحديث والفقه وعلم الكلام، ليكشفَ عن روح الإسلام فيما تضمّنتْه هذه الكتب من أفكار، ونحن نعلم أنّ كتبَ التراث القديمة لا تُعطي كنوزها سافرة لمن يقتحمها أول مرة، إذ إنّ طريقتها التعبيرية تكادُ تكون وقفاً على نفرٍ قد تمرّسوا بمغاليقها تلميذاً عن شيخ،

ومع ذلك فقد كان الكاتب الكبير يسألُ كبارَ رجال الأزهر في عصره ممن أَلِفوا هذه الكتب عن بعض ما يخفى على مثله، فكانَ دائمَ الحوار مع الأساتذة (محمد مصطفى المراغي) و(مصطفى عبد الرزاق) شيخي الأزهر السابِقَيْن، ومعَ الأساتذة (علي سرور الزنكلوني) و(محمود أبو العيون) و(محمود شلتوت) وكلّهم أعلامٌ في ميادينهم، وقد اختارَ شهر رمضان ليكون مجال ندوةٍ أدبية في منزله تُعقد بعد العشاء، مستمعاً إلى إجاباتٍ دقيقة يعيَها حقَّ الوعي! فأيّ وزير خطير ورئيسٍ لحزب سياسيّ، ورئيسٍ لمجلس الشيوخ! يُنحّي عن نفسه أعباءَ هذه المناصب الثقيلة ليجد راحتَه في منادمة أهل الصفوة من العلماء! إلاّ أن يكونَ حُبُّ الحقيقة قد جرى في نفسه مجرى الدم في العروق.

وأهمّ ما فطن إليه الدكتور هيكل في دراساته عن الشخصيات الإسلامية بالذات أنّها ذات غاية تنشد المُثُل العليا من حقائق الحياة، لأنّ الكبار من تلاميذ محمد ﷺ قد صُنعوا على غرارٍ نادرٍ بين الرجال، إذ ارتفع بهم رسول الله ﷺ عن الأهواء الذاتية إلى مشارف العِزّة ذاتِ الهدف البارز في سعادة الإنسانية، ومثلُ هذه الدراسة ذات الهدف المثالي لا يستطيعُها الدكتور هيكل فيما كتب عن أناس آخرين مثل: (إسماعيل باشا)، و(محمد قدري باشا)، و(ثروت باشا)، و(إسماعيل صبري)، و(قاسم أمين) و(محمد محمود)، و(سعد زغلول)، فهؤلاء أناس ذوو امتياز حقّاً، ولكنّ امتيازهم لم يرتكن إلى أستاذية روحٍ عالية معصومةٍ ذات منارٍ وضّاءٍ كما ارتكنَ الصحابةُ إلى أستاذية رسول الله ﷺ! ومِن هنا كانت خطواته الفكرية عن صحابة رسول الله ﷺ مجالَ اقتداء حافزٍ لمن يريدُ المثل الأعلى بين النابهين!.

وأقولُ في النهاية ما قلته من قبل[1]: حسب الدكتور هيكل أنّه حبَّب إلى القراء مطالعة صحائف العِزّة، ودروس المجد، وأمثلة الكرامة الحرّة، في أعمال قادةِ الإسلامِ وجنده العاملين.

* * *

(١) النهضة الإسلامية: ١/ ٥٠٨.

التأثر بأسلوب القرآن وكتب التراث

اتّجه الدكتور رحمه الله إلى الثقافة الإسلامية بعدَ أن اشتهر اسمه الكبير في المحيط الأدبي بالعالم العربي، وبعدَ أن أخرج من الكتب الأدبيّة والمقالات العلمية ما جعلَ صيته مدوّياً رنّاناً.

وكان يطالع القراء دائماً بمقالاته ومؤلفاته، وكأنّه سحابٌ لا ينقطع ماؤه، فالرّجلُ إذن من ناحية الإنتاج العلمي غزير المادة متنوّع الاتجاهات، فهو كما قدمنا مؤرخٌ، وقَصّاص، وناقدٌ، وكاتبٌ سياسيّ كبير.

ولكنّ موضع التأمّل في نتاجه الأدبي يدفع بنا إلى مقارنةٍ نقديّةٍ بين أسلوبيْن مختلفين في عهده الأوّل حين كان بعيداً عن التراث الإسلامي بقرآنه وأحاديثه، وتاريخه وفتوحه، وعَهدهِ الأخير حين ورد موردَ التراث، فدرسَ حياة رسول الله ﷺ وصحابته الأطهار دراسةً موضوعيّة، اضطرّتْه إلى أن يدرسَ كتابَ الله وسنة رسوله ﷺ، وصحائفَ المؤرخين السابقين، ممن دوّنوا رسائل أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ وخطبهم المتعارفة مع ما قالَ مشاهير القادة من أبطال الحروب، وكلّهم فصيحٌ بليغ، فإنّ هذه الدراسة التراثيّة قد نقلت أسلوبه البياني من وضعٍ إلى وضع، كما أضاءت اتجاهه الفكريّ بأشعةٍ نورانية كان بعيداً عنها من قبلُ، إذ كانَ تعبيره في عهده الأول لا يخلو من ضَعفٍ، هو موضع المؤاخذة من النظراء، كما أنّ اتّجاهه الفكري كانَ بعيداً عن منائر الوحي المحمديّ، لا تستضيء بنوره،

بل ربّما عارض اتجاهاتٍ لم يتبيّن هدفَها البعيد، فلما شرّفه اللهُ بالاتجاهِ الإسلامي المبين، انتفضَ تعبيرُه الأدبي مورِقاً زاهياً، وسما اتجاهه الفكري إلى ذروةٍ كتبَتْ لآثاره الخلود، بخلودِ ما اتّجه إليه من مبادئ سامية ذات إشراق وسطوع.

ولا أحسبني هنا أرسلُ القول دون دليل حين أزعمُ أنّ زملاءَ الكاتب الكبير كانوا يأخذون عليه بعض مناحي الضعف التركيبي، حين يُطالعون آثاره الأدبية ذاتَ المعاني العالية في عهده الأوّل، فهاهو ذا صديقه الدكتور طه حسين يتعرّض إلى نقد كتابه (ثورة الأدب) فيقول بعد أن يناقش قضاياه ويحلّل اتجاهاته:

«أظلمُ هيكل، وأظلمُ نفسي إن قلتُ: إن إعجابي بكتابه يُمكن أن يحدّ، فهو مرآةٌ صافية نقية لحياتنا الأدبيّة منذ وضعت الحرب الكبرى أوزارها، ولكنّي أظلم هيكلاً، ولا أظلمُ نفسي إن قلتُ: إنّي راضٍ عن كتابه كلَّ الرضى، فبيني وبين هيكل خصومةٌ قديمة، ما أرى أن تنتهي، لأنّه لا يريدُ أن ينهيها، ولغةُ هيكل هيَ موضع هذه الخصومة، فهيكلُ من أصحاب هذه المعاني من الكُتّاب، كما أنّ العقاد من أصحاب المعاني من الشعراء، وهيكلُ يُهمل لغته إهمالاً شديداً، ويتورّط في ألوانٍ من الخطأ، واضطرابِ الأسلوب، تُدنيه أحياناً من الابتذال، والغريب أنّه لا يضيق بذلك، ولا يجدُ به بأساً، ولا يعترف أنّه يسيء إلى نفسه وإلى أدبه معاً، ولستُ أريدُ أن أحصي عليه هذه العيوب، ولا أنْ أضربَ لها الأمثال، فهو لا ينكرها ولا يراها عُيوباً، ولعلّه يتمدّحُ بها أحياناً، وهو مخطئ من غير شك، فإنّ من المؤلم أن تبدو معانيه الجميلة الرائعة في ثيابٍ رثة بالية في كثير من الأحيان، وهيكلُ كالسّيل إذا عرض لموضوع اندفعَ فيه، فجاء

بالجيد الكثير، ولكنه لا يسلم أحياناً من الغثاء».

هذا اتهامٌ صريح للدكتور هيكل، فهو لا يهتمّ بصياغته الأدبيّة اهتماماً يرتفع إلى مستوى معانيه، وقد حاولَ هيكل أن يُبرّئ نفسَه، فردّ على الدكتور (طه حسين) بأنّه مدح أسلوبه من قبلُ، وأنّه يرى في بعض مقالاته أنّ صاحبه أزهريّ أزهري، لأنّه أتقنَ اللغة العربية حتى لقد يسرفُ في هذا الإتقان، وأفاض الدكتور في نقل ما يثبتُ ذلك من أقوال طه حسين الماضية، ولكنّ الدكتور طه لم يعفه من التعقيب، حيث قال بصدد دفاع الدكتور هيكل عن أسلوبه التعبيري[1]:

«إيذنْ لي يا أخي أن أصرَّ على رأيي فيك، فأنتَ تُجيدُ حتى تصل إلى الإبداع، وتضعف حتى تشرف على الابتذال، ولكَ أن تلومني كما شئتَ، فإنّي لم أهدك إلى مواضع الضعف في أسلوبك، فقد يئستُ من هدايتك، لأنّك كما تقول محبّ لأسلوبك كما هو، مشغوفٌ به على علاّته، لا تريدُ أن تغيّره، ولا تصلح مواضعَ النقص فيه، وكلّ ما أخشاه أيها الصديق أن تتهمني بالإسراف عليك، والغلوّ في نقدك».

وقد شاءَ الله أن يهدي هيكلاً إلى التعبير القوي لا على يد طه حسين، بل بنفحةٍ إلـٰهية جذَبته إلى الثقافة الإسلامية في معينها الصافي، حين التفتَ إلى دراسة السّيرة النبوية دراسة مستأنيةً ببصيرة، فقرأَ كتاب الله عز وجل دراسةً، وطالعَ الآثارَ الصّحاح من كتب السنة المطهّرة. وقرأ كتب الأعلام من أئمة البيان الجزْل، والتأليفِ المحكم، فجاءَ أسلوبهُ في كُتبه (حياة محمد)، و(الصديق أبي بكر)، و(الفاروق عمر)، و(عثمان)،

---

(١) مجلة الرسالة، السنة الأولى، سنة ١٩٣٣م.

و(في منزل الوحي) مثلاً أعلى للبيان المشرق، وإنّ القارئ ليتلوَ ما كتب الدكتور هيكل في هذا المجال من روائع، فيرى نور النبوة يتألق في السطور تألقاً يرتفعُ به إلى ذروة الإبداع، بلْ إنّ أسلوبَ القرآن نفسه قد اختلط بشغافِ قلب الكاتب الكبير، فانثالَ على لسانه في كثير مما سجلته هذه الصفحات المشرقات، فإذا أراد القارئ نموذجاً لهذا التأثير الذي يعتصم بنقل الجمل نقلاً ذا إشعاعٍ منيرٍ، فليستمعْ إلى بعض وصفه لمشهد الحُجاج، وهم يُحْرِمون في طريقهم إلى بيت الله، حيث يقول في كتابه (في منزل الوحي):

«طَبع هذا المنظر أعمقَ الأثر في نفسي، فهذه القوافل من المُشاة والركبان، تقصدُ إلى غايةٍ واحدةٍ، وترجو من ربّها الرجاءَ الأسمى، ليس يَذْكر أحدٌ ماله من ثروة أو جاه أو ولد، وإنّما يذكرُ أنّه وهؤلاء المسافرين معه، إخوةٌ في الله، وأنّهم جميعاً قد أتوا قاصدين إليه، ملبّين داعِيه، ليُشهدوه على أنفسهم، وليطّهروا بين يديه مما قدمت أيديهم، وليبدؤوا بذلك حياةً جديدة، يبتغون بها فيما آتاهم الله الدار الآخرة، ولا ينسوْن نصيبهم من الحياة الدنيا، ويُحسنون كما أحسنَ الله إليهم، ولا يبتغونَ الفساد في الأرض، ولهذا جاؤوا من كلِّ فجٍّ عميق، ولهذا ركبوا البحر والبرّ، واستهانوا بالمشقة، ونسوا كلَّ شيءٍ إلاّ الله، ولهذا أحرموا إيذاناً بأنَّ أقربهم إلى الله أتقاهم، ومظهراً لميلادهم الروحي الجديد، ليتخذوا من هذا الميلاد عدّة لحياة جديدة، ولهذا تتّصل قلوبهم، وإن اختلفتْ أجسامهم وألْوانُهم ولهجاتهم، وهمْ يُعبّرون عن هذا الشعور بالتلبية، تنفرجُ بها شفاههم في حبور وغبطة، مطمئنين إلى رحمة الله ومغفرته، إنّه يغفر الذنوب جميعاً، لا يغفر أنْ يُشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء».

هذا نمطٌ من الأسلوب البياني للدكتور هيكل في عهده التالي،

ولاشكَّ أنَّ التأثيرَ لا يقفُ عند الاقتباس من آياتِ الذكر الحكيم، فقد يكونُ الاحتذاءُ الفنّي أبلغ دلالة من الاقتباس من الحديث الشريف، حين يحاولُ الكاتب أن يسمو ببيانه متأثراً بهذا الكتاب في مستوًى من النّصاعة والشفافية يجعل أسلوبَه يترقرق بالمعاني خلال الألفاظ كما يتألق الشّراب الصافي في إناءٍ من البلّور الناصع، وهذا ما نجدُ لهُ أمثلةً كثيرة في كتاب (حياة محمد) بالذات، لأنّ روح النبيِّ الأعظم ﷺ قد سما بالكتاب إلى أرقى قمة، ولكنّنا ننقل النص الماضي لنُبيّنَ أن الكتاب الخالد قد وَجد مكانه بهذا الإشراق النبوي، وأنَّ الكاتب حين حفظ كتاب الله في صغره، ثم تشاغل عنه ببحوثه الأوروبيّة، لم يستطع إلا أن يعودَ إلى ما حفظ، فإذا هو بين يديه.

هذا عن التأثير التعبيري، أما عن التأثير الفكري، فحدّثْ ولا حرجَ، لأنّـه نقل الدكتـور هيكل من ميدانٍ إلى ميدانٍ، فبعدَ أن كان مشـغوفاً بالأساطير الفرعونية عن (إزيس) و(توت عنخ آمون) و(وادي الملوك) عرف لهذه الأساطير قدْرها من الخيال، وأنّها وأمثالها لا تكاد تقترب من الواقع إلا لتبعد عنه، ولم يرَ بأساً في أن يتخذ الأديب الفنان من الأسطورة مصرية وغير مصرية وعاءً لأفكارِه في قصّة أدبية أو مسرحية فنيّة، بل في مقالٍ توجيهيّ يهدف إلى غايته عن طريق الرمز الأسطوري، لم يرّ هيكل أن يهدف الكاتبُ إلى هذه الرموز فيما يعالج من الأساطير.

ولكنّ الحذرَ كلَّ الحذرَ والخوفَ كل الخوف، أن نلْجأَ إلى الأسطورة فيما نتحدّث به عن سيرة رسول الله ﷺ، ولذلك تعقّب الدكتور طه حسين ناقداً، حين أصدر كتابه (على هامش السيرة) وقال في مقدمته: إنّه اصطنع بعض الأساطير لترمزَ إلى ما يريدُ من جلاء الحياة الاجتماعية والأدبيّة في

عصر النبوة، وهُنا جلجل الدكتور محمد حسين هيكل بمعارضته الصارخة، وقال محارباً هذا الاتجاه: لقد قال الدكتور طه حسين في مقدمة على هامش السيرة:

«أنا أعلمُ أنّ قوماً سيضيقون بهذا الكتاب، لأنهم محدثون يكبِرون العقل، ولا يثقون إلا به، وهم لذلك يضيقون بكثير من الأخبار والأحاديث التي لا يُسيغها العقل ولا يرضاها، وهم يشكون ويعلنون الشكوى حين يرون كلف الشعب بهذه الأخبار، وهؤلاء سيضيقون بالكتاب بعض الشيء، لأنهم سيقرؤون فيه طائفة من الأخبار والأحاديث التي تصبو نفوسهم لحربها ومحوها من نفوس الناس، وأحبّ أن يعلمَ هؤلاء أنَّ العقلَ ليس كل شيء، وأنَّ للناس ملكاتٍ أخرى ليست أقلَ حاجة إلى الغذاء من العقل، وأنَّ هذه الأخبار والأحاديث إذا لم يطمئنّ إليها العقل، ولم يرها تستقرّ لها أساليب التفكير العلمي، فإنّ في قلوب الناس وشعورهم وعواطفهم وخيالهم، وميلهم إلى السّذاجة، واستراحتهم إليها من جُهد الحياة، ما يُحبّب إليهم هذه الأخبار، ويرغبهم فيها، ويدفعهم إلى أن يلتمسوا عندها الترفيه عن النفس حين تشقّ عليهم الحياة».

هذا ما قاله الدكتور طه، أمّا الدكتور هيكل فقد عارضَ ذلك مُشتدّاً بعد أن ذكر ما قاله طه في المقدمة ليبيّن للقرّاء وجهة الخلاف، ومِن أدب الناقد أن يعرضَ قولَ المنقود نفسِه بإسهاب ورحابة صدر كيلا يغرّر بالقارئ في بعض ما يقول، وهذا ما أدّاه الدكتور هيكل في أمانةٍ، لأنه كتب صحيفتين متتاليتين في إيضاحِ وجهة نظر صاحبه، ثم عقّبَ عليها بما ننقل بعضه حين قال[1]:

---

(١) من كتاب المعارك الأدبية، للأستاذ أنور الجندي، ص١٥٢.

«وطه يذكرُ أنّه دُفع لإحياء هذه الأساطير دفعاً لم يكن للإذعان له من بدّ، ذلك أنَّ هذه الخطوة من خطواتِ تطور النفس خطوةٌ طبيعية كان مُحالاً مغالبتها، أو التغلب عليها، ويجبُ أن نذكرَ أنَّ هذا الدافع قد بلغَ من القوة ما لا يستطيع أحد من الناس مقاومته، فهو كما رأيتَ قد خطا في هذا الكتاب مِن تحقيق العلم الذي ظلّ عليه عاكفاً سنين إلى أَدب الأسطورة الميثولوجيّة في حياة العرب، وفي سيرة النبي ﷺ، وهو إذا خَطَا هذه الخطوة يعلمُ أن كثيراً من هذه الأساطير التي تُروى إنما هي بعضُ الإسرائيليات، التي روَّجَها اليهود بعد عصر النبي ﷺ متأثّرين بحقدِهم على محمد ﷺ لأنّه حاربهم، وأجلَى الأكثرين منهم من ديار العرب. ومهّدَ بذلك لإجلاءِ البقيّة الباقية بعد زَمن قصير من وفاته، متأثرين بحفيظتهم على المسلمين حفيظةً جعلتهم يروّجون الألوف من الأحاديث المكذوبة على النبي ﷺ، ومن القصص التي تُنافى تعاليمه منافاةً صريحةً، فما عسَى يكون هذا الدافع القويّ الذي دفع طه حسين إلى هذا التطّور فلم يجدْ بدّاً من الإذعان ومن صياغة هذه الأساطير في الصور البديعة الرائعة التي تنفس بها كتابة الأخير؟!!

إن أدب الأسطورة هو أخصبُ ألوان الأدب، ويزيدها خصباً أنّ القارئ والكاتب يعرفان معاً أنَّ المادة التي تُعالَجُ هي من نوع الأسطورة، فلا جُناحَ إذا أطلقا للخيال فيها العنان، وابتدع الخيالُ ما يزيدُ هذه الأساطير رقةً وعذوبةً، لاتَحولُ عن المثل القائل: «أعذبُ الأدبِ أكذبُه» بأي حائل، لذلك أستسمح طه العُذرَ إن خالفتُه في اتخاذ النبيّ ﷺ وعصره مادةً لأدب الأسطورة... والنبيّ ﷺ وسيرته وعصره مما تتصلُ بحياة المسلمين جميعاً، بل هو فلذة من هذه الحيـاة، ومن أعز فلذاتها، وطه يعلمُ أكثر

مما أعلمُ أنّ هذه الإسرائيليّات إنما أريدَ بها إقامة أساطير ميثولوجية إسلامية لإفساد القلوب والعقول من سواد الشعب، ولتشكيك المستنيرين، ودفع الريبة إلى نفوسهم في شأن الإسلام ونبيّه.. ثم قال الدكتور هيكل:

«من أجل ذلك أودّ أن يفصلَ طه فيما قد يكتُب بعدُ مِن فصول تجري مجرى (على هامش السيرة) بين ما يتصل بالعقائد وما لا يتصل بها ولا أدْري ما موقعُ هذا النقد من نفس الدكتور طه حسين إنّما الذي أدريه أنّه أصدر الجزء الثاني حافلاً بالأسطورة، والثالث متخففاً منها كثيراً».

وأقْوى ما يَظهر من تأثر هيكل بكتب التراث هذا الدفاع الحار الملتهب غيرةً على الإسلام فيما كتبه عن ريادته للإنسانية، حينَ شرح مبادئ الحرية والإخاء والمساواة، فقد جمع هيكل في هذا الدفاع بين شيئين هما:

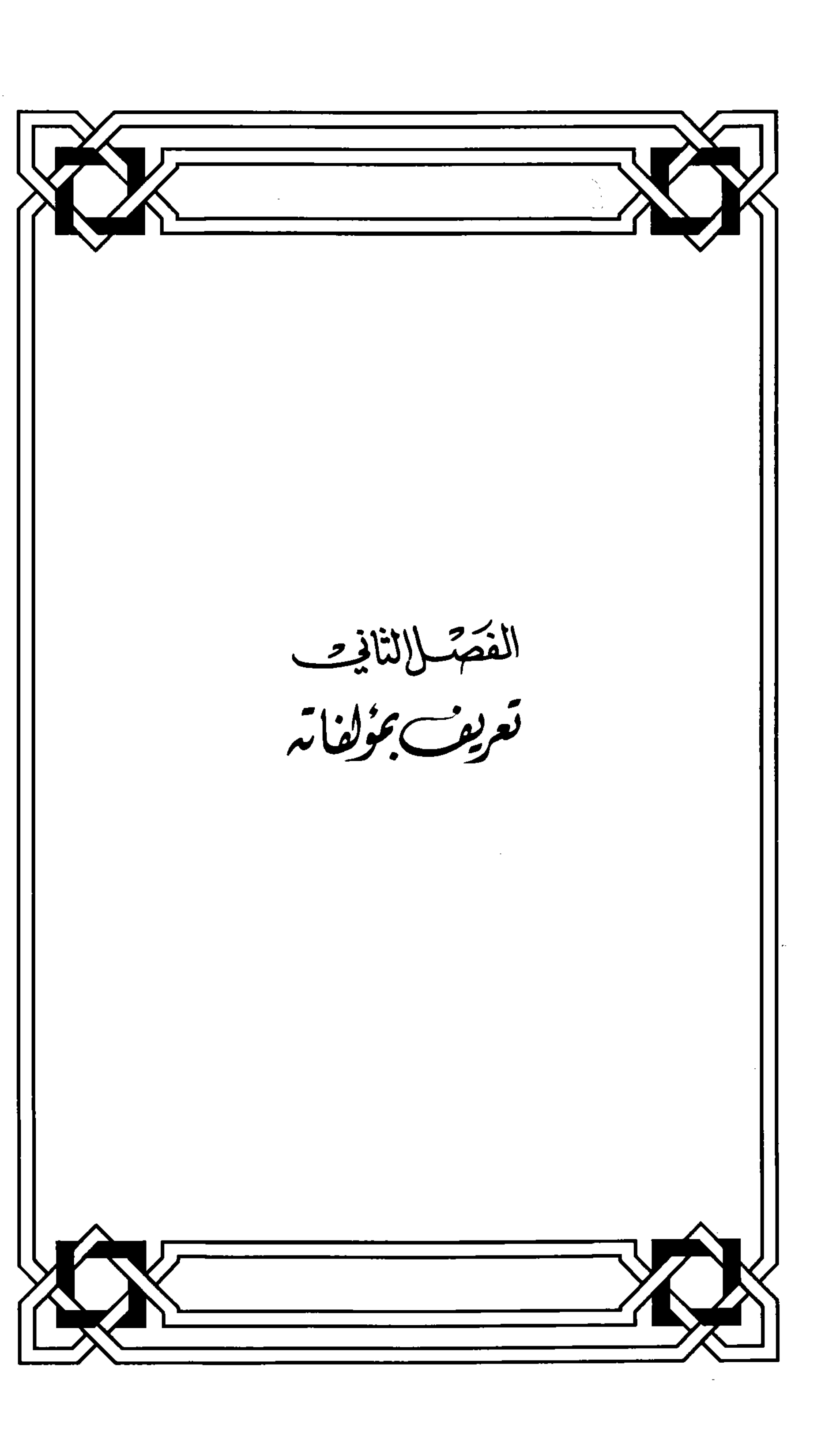
هضمُه الجيد للأفكار الإسلامية والمبادئ التشريعية بحيث كان هذا الهضم سلاحَه في مجابهة أعداء الفكرة الإسلامية.

والشيء الثاني هو إلمامُهُ المستوعب لأكثر ما قال الخصوم، ومعرفةِ أقدارهم العلمية على وجهها المعقول، دون استعظام لما يتظاهرون به من كثرة المصادر، وسَعة المحصول، هذا الإلمامُ المستوعب في حقل التاريخ الإسلامي بالذات قد رَدَّ كيداً كبيراً عن صُدور نفرٍ من الأفذاذ، أخلصوا لله حقَّ الإخلاص، ووقع بعضهم في أخطاء لم يتبيَّن وِجهتها حين وقعت منه، ولكنّ هذه الأخطاء كانت ناقوساً صاخباً جلجل به أعداءُ الإسلام فكبروا الصغير، ورفعُوا الساقط المرذول إلى مكانةٍ دون ما يستحق، وهنا حاربهم هيكل بسلاحه الناقد، من اطلاع

واسع، وبصر نافذ، وخبرة بدفائن النفوس، وكوامن السرائر. لدى من يلبسون الحق بالباطل.

وقد كانَ من هدفي أن أضربَ أمثلةً شتى لهذا الظفر البياني في معامع الجدل، ولكنّ كتب الدكتور هيكل من الذيوع والانتشار بحيث لا تكاد تخلو منها مكتبة قارئ يهتمُّ بتاريخ الإسلام اهتماماً جادّاً بصيراً، على أنّ ما سأختاره من خلالِ حديثي عن كُتبه الإسلامية يقدّم المثال الحيَّ لما أقول، وإني أدعو البعيدين عن مَوْرد التراث الإسلامي مكتفين بما يتلقّفون من المقالات الموجزة، أن يردوا مورد الدكتور هيكل فيقرؤوا كما قرأ، وسيجدون من عوامل التشويق ما قد يكونون به من أصحاب الأقلام المجاهدة في ميدان الإسلام، وهو شرفٌ لا يسمو إليه غيرُ الأبطال.

* * *



الفصل الثاني

تعريف بمؤلفاته

الفصل الثاني

تعريف بمؤلفاته

مسرد مؤلفات هيكل

أ ـ مؤلفاته المطبوعة حسب سني الطبع :

١ ـ دين مصر العام ـ بالفرنسية ، ط . عام ١٩١٢م .

٢ ـ زينب (قصة) ، ط . عام ١٩١٤م

٣ ـ جان جاك رسو ، جزءان ، ط . عام ١٩٢١ ـ ١٩٢٣م .

٤ ـ في أوقات الفراغ ، ط . عام ١٩٢٥م .

٥ ـ عشرة أيام في السودان ، ط . عام ١٩٢٧م .

٦ ـ تراجم مصرية وغربية ، ط . عام ١٩٢٩م .

٧ ـ ولدي ، ط . عام ١٩٣١م .

٨ ـ ثورة الأدب ، ط . عام ١٩٣٣م .

٩ ـ حياة محمد ، ط . عام ١٩٣٥م .

١٠ ـ في منزل الوحي ، ط . عام ١٩٣٧م .

١١ ـ الصديق أبو بكر ، ط . عام ١٩٤٢م .

١٢ ـ الفاروق عمر ، جزءان ، ط . عام ١٩٤٤ ـ ١٩٤٥م .

١٥ ـ الإمبراطورية الإسلامية، ط. عام ١٩٦٠م.

١٦ ـ الشرق الجديد، ط. عام ١٩٦٣م.

١٧ ـ عثمان بن عفان، ط. عام ١٩٦٤م.

١٨ ـ الإيمان والمعرفة والفلسفة، ط. عام ١٩٦٤م.

ب ـ مؤلفاته المخطوطة:

١ ـ يوميات باريس.

٢ ـ خلال أوروبة.

٣ ـ مجموعة قصص قصيرة.

* * *

حياة محمد

أعظم آثار هيكل العلميّـة

سـعدتِ المكتبةُ الإسـلامية بهذا الكتاب حقاً، لأنـه أعظم تاريخٍ للنبـوة صدر باللسان العربي في عصره، وقد جذب الأنظار جذباً قوياً لأمورٍ لم تكن تتوافر لسواه، إذ كان صدوره عن الكاتب الكبير الأستاذ الدكتور محمد حسين هيكل أحدِ زعماء الأدب البارزين في زمنه كافياً لأن يشدَّ إليه انتباه العازفين عن حياض السيرة المطهرة، ممّن أُولعوا بأعلام الأدب الأوروبي، وما أكثر ما تحدّث عنهم المتحدّثون، ونقل آثارهم الكاتبون، أما الذين أحبوا التراث الإسلامي، وأكبروا الأدب العربي فقد كان صدورُ (حياة محمد) ـ ﷺ ـ بهجة لنفوسهم، ومسرّةً لقلوبهم، ومورداً عذباً يستقون من سلسله الدافق فيسعدون.

لم يكن الدكتور هيكل مُصانعاً يبغي استهواءَ القرّاء بحديثه عن رسول الله ﷺ ـ كما حاول بعضُ خصومه أن يُظهروه، إذ عزّ عليهم أن ينضمَّ إلى رجال البيان الإسلامي زعيم من أكبر زعماء الأدب في عصره، فيكونَ قوّةً دافعةً نحو الإصلاح الحقيقي في الفكر العربي الحديث، كما كان سابقاً لمنْ تابعوه في الكتابة النبوية من أعلام الأدب المعاصر متابعةً جعلت السيرة النبوية المطهّرة موردَ بيانٍ عذب لمن أراد أن يَرِدَ نمير السير الإنسانية في أصفى المناهل، وأعذب الحياض، ولم يكن الدكتور هيكل في ذلك التطوّر الرائع غير إنسانٍ أخذ يبحثُ عن الحقيقة الخالصة منذ نشأ

في دنيا الكتابة الأدبية، حتى اهتدى إليها بعد تعثّر طويل.

أما منهج الكتاب الفكري، وأسلوبُه التعبيريّ، فقد شفى صدورَ المؤمنين، وألهبَ أكباد الجاحدين، إذ إنّ الكاتب الكبير قد رُزق فيضاً إسلامياً دافقاً يجيش في خاطره، لينقله القلم إلى قرائه في استرسالٍ ناصعٍ مكتملِ الحلقاتِ، لاترى فيه ثغرة توحي بضعفٍ، أو نُتوءاً يدل على نشاز، ولا يرجع ذلك إلى قدرة المؤلف على الألفاظ، بل يرجع إلى قوة اقتناعه بما يقول، وشدة إيمانه بما يسطر.

فالرجل قد قرأ وهضم، ووازن وناقش، واستمع إلى الأنصار والخصوم، وغاص في العُباب الزاخر، ليلتقط ما يطويه من دررٍ! حتى إذا اتّسعت فكرته، وأصبحت جليّةً واضحةً عن رسول الله ﷺ - شرع في كتابته، وكأن غيثاً دافقاً ينهل منه يراعه ليحيي مواتَ القلوب، وليري الناسَ كيف كانت سيرةُ الرسول - عليه الصلاة والسلام - أروع مثالٍ للنضال في سبيل الحق، وتحدّي العقبات، مهما امتدت جذورها في الأرض، ونهضت قممها في السماء.

ولسنا نستفيض هنا في مدحٍ عاطفي، لأن معنا الدليل المقنع في كلِّ صفحةٍ مما كتب.

تقدّم المؤلف بكتابه الفذّ إلى القراء، وفي صدره مقدمةٌ تحليليةٌ كتبها إمامُ عصره الإمام الأكبر الشيخ محمد مصطفى الراغي - شيخ الجامع الأزهر - ومن غير المراغي من أعلام البيان الديني يكون جديراً بكتابة مقدمة تحليلية لمثل هذا الكتاب! وموضوعُه أسمى موضوع تتجه إليه العيون، وكاتبه في الصفّ الأول بين كبار الكتاب! وقد أحسْن الدكتور هيكل حين طلبَ من الإمام الأكبر أن يقدم كتابه للناس، إذ إنّ خطه السابق

البعيد عن الفكرة الإسلامية يوحى بالصدود لبعض من يتقيدون بالماضي دُونَ نظرٍ إلى تبدّل الحاضر، وكان الإمام الأكبر ميزاناً دقيقاً للحكم النزيه، فقد وضع الكتاب موضعه الصحيح حين حكم بقوّة أسانيده، وصحّة استنباطاته، إذ كان المؤلف في رأيه عامرَ القلب بما في الوحي المحمدي من هدًى ونور، وبما في سيرة رسول الله ﷺ من جمالٍ وعظمةٍ وعبرةٍ، مطمئناً كلَّ الاطمئنان إلى أنّ هذا الدين المحمديَّ سينقذ البشر مما هو فيه من الحيرة، وينتشلهم من ظلمة المادة، ويُبصِّرهم بنور الإيمان، ويوجِههم إلى النور الإلـهي، فيدركون به سَعة رحمته تعالى التي وسعت كل شيء، وعظمة مجده الذي تسبِّح له السماوات والأرض، وكلّ شيء فيهما، وعزّته التي تتضاءل أمامها الموجودات، كما وفق الكاتب في تنسيق الحوادث، وربط بعضها ببعض، فجاء كتابُه عِقداً منضّداً وسلسلةِ متينة محكمة الحلقات.

وقد أبدعَ في بيان الأسباب والأغراض بياناً قوياً واضحاً يجعل القارئ مطمئنَّ النفس، رضيَّ القلب، ليستمتع بما يقرأ، ويثلج صدره ببرد اليقين، ويحثّه على متابعة القراءة، حتى يوفي على آخر ما بيده من البحث(١).

ومقدمة الإمام الأكبر مثال يُحتذى، لأنّها لم تكن موافقةً تامة لكلّ ما في الكتاب، بل سلكت مسلك النقد لما يخالف فيه الإمام الأكبر صاحبَه، وهذا ما يجب أن تنهجه المقدمات العلمية في كلِّ كتاب، فقد وقف الشيخ المراغي عند قول المؤلف: «ولعلي أكونُ أدنى إلى الحقِّ إذا ذكرتُ بأني بدأت هذا البحث في العربية على الطريقة الحديثة، وقد

(١) مقدمة حياة محمد للأستاذ المراغي، ص (ن، س).

تأخذُ القارئ الدهشة إذا ذكرتُ ما بينَ دعوة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ والطريقة العلمية الحديثة من شبه قوي، فهذه الطريقة تقتضيك إذا أردت بحثاً أن تمحو من نفسِكَ كلَّ رأي، وكلَّ عقيدةٍ سابقة في هذا البحث، وأن تبدأ بالملاحظة والتجربة، ثم بالموازنة والترتيب، ثم بالاستنباط القائم على المقدمات العلمية، فإذا وصلت إلى نتيجةٍ من ذلك، كانت نتيجةً علمية خاضعة بطبيعة الحال للبحث والتمحيص، ولكنَّها علمية، ما لم يثبت البحث العلمي تسرب الخطأ إلى ناحية من نواحيها، وهذه الطريقة هي أسمى ما وصلت إليه الإنسانية في تحرير الفكر، وها هي ذي مع ذلك طريقة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأساس دعوته».

أقول: وقفَ الأستاذ المرغي عند هذه الفِقْرات ليعقّب عليها بقوله: «أما أنَّ هذه الطريقة طريقة القرآن فذلك حقٌّ لا ريبَ فيه، فقد جعل العقل حكماً، والبرهانَ أساسَ العلم، وعابَ التقليد، وذمَّ المقلدين، وأنّبَ من يتبع الظنَّ. وأما أنَّ هذه طريقة حديثة فهذا ما يُعتذر عنه، وقد ساير الدكتور غيرَه من العلماء في هذا، ذلك لأنّها طريقة القرآن كما اعترفَ هو، ولأنَّها طريقة علماء السلف من المسلمين، انظر كُتب الكلام، تجدهم يقرّرون أنَّ أول واجبٍ على المكلّف معرفة الله، فيقول آخرون: لا. إن أوّل واجب هو الشك[1]، ثم إنّه لا طريق للمعرفة إلا بالبرهان،

---

(١) الشك العلمي كالذي قال به ديكارت، لا الشك الوهمي الخيالي الذي قال به طه حسين، انظر مقدمة كتاب «مقالة في المنهج» للدكتور محمود الخضيري ط. المطبعة السلفية، والعجيب أن هذه المقدمة الرائعة حذفت من الطبعة الجديدة للكتاب، والذي أشرفت عليه ابنته زينب! وعجبي حقاً من هذا الوفاء. (الناشر)

وهو، وإن كان نوعاً من القياس، إلا أنَّه يجب أن تكون مقدّماته قطعية حسية أو منتهية إلى الحس، أو مدركة بالبداهة، أو معتمدة على التجربة الكاملة، أو الاستقراء التام، كما هو معروف في المنطق، وكل خطأ يتسرّب إلى إحدى المقدمات، أو إلى شكل التأليف مفسِدٌ للبرهان.

ثم قال الإمام الأكبر: طريق التجريد طريق قديم، وطريق التجربة والاستقراء طريقٌ قديم، والتجربة والاستقراء وليدا الملاحظة، فليس هناك جديدٌ عندنا، ولكنَّ هذه الطريقة القديمة بعد أن نُسيت في التطبيق العلمي والعملي في الشرق، وبعد أن فشا التقليدُ وأُهدر العقل، وبعد أن أبرزها الغربيون في ثوبٍ ناصعٍ، وأفادوا منها في العلم والعمل، رحنا نأخذُها عنهم، ونراها طريقةً في العلم جديدة[1].

وجاءت مقدّمة المؤلف ليتحدث عما دعاه إلى تأليف الكتاب، فأشار إلى ما لمسه من محاولة استشراقيّة للقضاء على الروح المعنوية في بلاد الإسلام، والهجوم على رسوله ﷺ بشتى المفتريات والادعاءات، متسربلةً بثياب البحث المحايد، مع تعنُّتٍ ظاهرٍ، هو حجة العاجز حين لا يجدُ الدليلَ الواضحَ، فيلجأ إلى التكلّف والافتعال، وكانت الطريقة العلمية هي السبيل الوحيد في دحض الحجة الباطلة، وتأييد الحق الثابت، وحسبُه ـ كما يقول: أن يمهد بعمله السبيلَ إلى كتابة صحيحة، وتاريخٍ نزيهٍ لصاحب السيرة ـ ﷺ ـ لأنَّ التعمُّقَ في هذا المجال يكشِفُ أسرارَ كثيرٍ من نواحي علم النفس، تؤكد صلة الإنسانية بالكون الأعظم، وتزيدُ المؤمنين استمتاعاً بظواهر الطبيعة، ووسائل القوة والحركة في الحياة.

---

(١) مقدمة حياة محمد للأستاذ المراغي، ص(ل).

يقول الكاتب: ومن أجل ذلك كان خليقاً بكلِّ مَنْ يتصدّى للبحث في مثل موضوعـه أن يتوجَّه به إلى الإنسانية كلها، لا إلى المسـلمين وحدَهم، فليست الغايةُ الصحيحةُ منه دينيةً محضةً كما قد يظن بعضهم، بل الغاية الصحيحةُ أن تعرف الإنسانية كيف تسلُك سبيلها إلى الكمال الذي دلّها محمد ـ ﷺ ـ على طريقه، وإدراك هذه الغاية غيرُ ميسورٍ إذا لم يهتد الإنسان إلى هذا السبيل بمنطق عقله، ونور قلبه، راضي النفس بهذا المنطق، مُنْشَرِحَ الصدر إلى هذا النور، لأنّ مصدرهما المعرفة الصحيحة والعلم الصحيح[1].

وإذا كانت الغايةُ من الكتاب ـ لدى المؤلف ـ أن تعرف الإنسانيةُ كيف تسلك سبيلها إلى الكمال الذي دلها محمد ـ ﷺ ـ على طريقه، فهو في مخاطبة الإنسانية جميعها ـ لا المسلمين فقط ـ يميل إلى الاستدلال بالمنطق العقلي وحده، فيترك الاسترسال في حديث المعجزات الكونية، لا لأنه لا يؤمن بها، بل لأنّه يخاطب من لا يؤمنون بالإسلام بمنطق العقل الذي يأبى التسليمَ بالخوارق[2].

وإذا كان القرآن وحده هو الحجة العقلية أمامَ من يفكرون، فإن الاكتفاء بـه في مواجهة غير المسـلمين مما يلزمهم كلَّ إقناع صادق متى سلمت النفوس من الأكدار، وتعرت العقول عن غشوات الأغراض!

واللجوء إلى الحجة العقلية وحدَها أمام من لا يدينون بالإسلام هو أقربُ طريق للإقناع.

---

(١) حياة محمد، ص٥٢ طبعة ثانية.

(٢) الخوارق التي تحدث على أيدي الأنبياء تسمّى معجزات، وهي جائزة عقلاً. (الناشر)

وحين ظهرت الطبعة الأولى من (حياة محمد) ﷺ أخذ بعضُ الناقدين على المؤلف اقتصاره على المعجزة العقلية دون المعجزة الكونية! وكان هذا المأخذ مدعاة أخذ وردٍّ بين الناقدين، وقد أشار إليه المؤلف في مقدمة الطبعة الثانية، ونقل ما قال صاحب (المنار) بصدده، إذ تعرّض السيد محمد رشيد رضا إلى هذه المسألة فقال فيما رواه عنه المؤلف(١):

«أهم ما ينكره الأزهريون والطرقيوّن على هيكل مسألة المعجزات أو خوارق العادات، وقد حررتّها في كتاب (الوحي المحمدي) من جميع نواحيها ومطاويها في الفصل الثاني، وفي المقصد الثاني من الفصل الخامس بما أثبت به أن القرآن وحده هو حجة الله القطعية على ثبوت نبوة محمد ـ ﷺ ـ بالذات، ونبوة غيره من الأنبياء وآياتهم بشهادته لا يمكن في عصرنا إثبات آية إلا بها».

ومعنى هذا الكلام أنّ معجزات الأنبياء مثل: (انقلاب العصا حية) لدى موسى ـ عليه السلام ـ (وإحياء الميت) لدى عيسى ـ عليه السلام ـ و(انشقاق القمر) لدى محمد ـ ﷺ ـ لا يؤمنُ بها إلا مَنْ رآها في عصرها، أما التّالون المتتابعون من بني البشر فلا بد لهم من حجة دائمة تقنع من كان له عقل، وهذه الحجة لا بد أن تكون عقلية يدركها التأمل الفاحص، والفكر المستنير، والقرآن هو الحجة البالغة في كلِّ عصر، وهو الآية الشاهدة بصدق النبوة في كل جيل، فإذا احتفل به هيكل دون المعجزات الكونية التي لا ينكرها، ولكن يعلم أن آثارها قد ذهبت بذهاب عصرها، فهو يأتي

---

(١) حياة محمد، ص٥٢، طبعة ثانية.

الأمرَ من بابه، إذ يتجه بكلامه إلى من لا يصدّقون غيرَ ما يتصوّرون.

وأنا من وجهة نظري الشخصية، التي أميلُ إليها بعد قراءة ما تتالى من الأخذ والرد حول هذه الخوارق الحقيقية لا أراني أؤيد وجهة نظر الدكتور هيكل في الارتكاز على العقل وحده، وإن كان هدفُه إقناع الخصوم من الأعداء، لأنَّ هؤلاء الخصوم في صميم اعتقادهم يرون أنَّ العقل بحيّزه الضيق لا يقدر على الاحتكام وحده في أمور كثيرة دون مساعدة الإلهام، وهم لذلك يؤمنون بمعجزات من سبق محمداً ـ ﷺ ـ من الأنبياء، ويعلمون تمام العلم أنَّ مقدرةَ العقل البشري محدودةٌ، لا تتجاوز نطاقها المعلوم. وللعقل مصادره التي يعتمد عليها من الحواس والمقروءات والمسموعات، ولكنّ الحواس لا تعرف شيئاً عمّا وراء الغيب، أو ما يقال عنه وراء المادة، وكذلك المقروء والمسموع مما ينتهي إلى المشاهد المنظور، ما لم يأتِ به نبي بوحي من عند الله، فيكشف الأسدال عما لا تدركه الحواس، ولا يحيط به المقروء والمسموع.

وقد مرّت قرونٌ كثيرة على تأكيد نظريات علمية يؤمِنُ بها العلماء أشدَّ العلم، لأنها مرتكزة على أدلة يؤيدها العقل الظاهر بقياسه الواضح، ثم جدّ من المكتشفات ما جعل هذه النظريات أساطير يرمى بها في سجل التفكير البدائي، مع أنها تُعزى لرؤوس مفكرة ذات ثقل رصين في ميزان التفكير الإنساني، فهل كان الاعتمادُ على العقل وحدّه طيلة هذه القرون التي آمن أصحابها بالنظريات العلمية الباطلة كافياً لتقرير الحقيقة على وجهها الأكيد.

إنَّ الأفضل للباحثين في المعجزات أن يعلموا أنّها تتصل بقدرة الله ـ عز وجل ـ وقدرةُ الله فوق ما تحتمله العقول، فإذا سلّمنا بقدرة الله على نحو لا يقفُ أمامـه حائِلٌ معجزٌ، فلنا أن نسـلِّم عقلاً بكل معجزة ييسرها

الله لنبيه الكريم! ، وهذا التسليم وحده ضربٌ من ضروب الفكر الصحيح. وليس إيماناً أعمى يفقد الدليل، **لأنَّ الفكرَ الصحيحَ يعترف بقدرة فاطر السماوات والأرض، وفالق الحب والنوى، ومرسل السحاب بالرحمة والحياة، وخالق الإنسان من طين لازب، هذه القدرةُ القادرةُ لا يعجِزُها أن تيسر انشقاق القمر، أو أن تمدَّ الجيشَ الإسلامي بجنودٍ من الملائكة، أو أن ترسل على الأعداء طيراً أبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل، فيكونوا كالعصف المأكول**[١].

في اعتقادي أنَّ الدكتور محمد حسين هيكل ـ رحمه الله ـ لا ينكر شيئاً من هذه الخوارق، ولكنّه يحاول إقناع قوم يجعلون إنكارها إنكاراً لنبوة محمد ﷺ، فيقول لهم: «لنفرض جدلاً أنّها لم تحدث ولم تقع! أما يكفي نجاحه وتوفيقه في أداءِ رسالة الإسلام لثبوت هذه النبوّة، ثم ألا يكفي القرآن الكريم بإعجازه المبين».

يقع كتاب (حياة محمد) في ستمئة صفحة تشمل واحداً وثلاثين فصلاً غير مقدمتين كبيرتين، وخاتمة في مبحثين جيدين عن الحضارة الإسلامية، وموقف المستشرقين منها.

وإذا كان للبيان الديني في عصرنا هذا أنموذجٌ يُحتذى، فإنّ بيان هيكل في (حياة محمد) من نماذج الأسلوب الأدبي للدراسات الإنسانية، إذ يسوقُ حقائقه التاريخية في نسجٍ متينٍ قويِّ الأسرِ، بالغِ النفاذ، وإذا استطاعت عاطفته الدينية أن تتوهّج في سطوع في كثير من مواقف البطولة

---

(١) المعجزة هي فعل الله تعالى وليس فعل من حدثت على يديه، وقدرة الله تعالى لاحدود لها، وليس في المعجزات ما يستحيل عقلاً وقوعه... (الناشر)=

الرائعة، أو مناحي الإنسانية الناهضة بشتى الأعباء والآلام، فإنَّ تفكيره الرصين قد ألزمه بإبداع الحجج الفاصلة، والبراهين النافذة، يسوقها هادئة دون صخب أو انفعال.

وقد اختص الفصل الأول بالحديث عن بلاد العرب قبل الإسلام طبيعةً وتاريخاً، وتجارة ومعتقدات، كما أحسن توضيحَ العلاقات السياسية بين شبه الجزيرة وما يجاورها من الممالك والشعوب.

وفي الفصل الثاني تحدّثَ عن مكة والكعبة وقريش حديثاً تلاءمت عناصره أكمل التلاؤم، واتسعت دائرتُه حتى شملت ما يتطلبه الموقف من نقاط تاريخية توغِلُ في القديم من ناحية، وتمضي إلى الحاضر من ناحية ثانية، وحين ألمّ بقصّة ذهاب إبراهيم إلى مكة مع ولده إسماعيل وأمّه هاجر، عرض لما ارتاب فيه المتشككون بشأنها، وهي قضية أثارت عجاجة مضطربة حين ردّدها الدكتور طه حسين في كتاب (مع الشعر الجاهلي) نقلاً عن (مرجليوث) و(وليم موير) وغيرهما ممن أرادوا أن يكذِّبوا ما قاله القرآن بغير علم ولا هدًى!! وقد ناقشها الذين نقضوا كتاب (مع الشعر الجاهلي) مناقشة حاسمة في صفحات طوال، ولكنّ الدكتور محمد حسين هيكل قد اهتدى إلى الحق في سطورٍ قليلة أجهزت عليها بما لا يدعُ مجالاً للارتياب، فقال في وضوح[1]:

«يرتابُ السير (وليم موير) في ذهاب إبراهيم وإسماعيل إلى الحجاز، وينفي القصة من أساسها، ويذكر أنّها بعض الإسرائيليات التي ابتدعها اليهود قبل الإسلام بأجيال ليربطوا بينهم وبين العرب بالاشتراك في أبوة

---

(١) حياة محمد، ص٨٩.

إبراهيم لهم أجمعين، إذ كان إسحاق عليه السلام أباً لليهود، فإذا كان أخوه أباً للعرب، فهم إذن أبناء عمومة توجِبُ على العرب حُسْنَ معاملة النازلين بينهم من اليهود، وتُيسر السبيلَ لتجار اليهود في شبه الجزيرة.

ويستند المؤرخ الإنكليزي في رأيه هذا إلى أنَّ أوضاع العبادة في بلاد العرب لا صلةَ بينها وبين إبراهيم عليه السلام، لأنَّها وثنية مغرقة في الوثنية، وكان إبراهيمُ عليه السلام حنيفاً مسلماً، ولسنا نرى مثل هذا التعليل كافياً لنفي واقعة تاريخية، فوثنية العرب بعد موت إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ بقرونٍ كثيرة لا تدلُّ على أنهم كانوا كذلك حين جاء إبراهيم عليه السلام إلى الحجاز، وحين اشترك وإسماعيل عليه السلام في بناء الكعبة، ولو أنها كانت وثنيةً يومئذ. لما أيد ذلك رأي السير (موير)، فقد كان قوم إبراهيم ـ عليه السلام ـ يعبدون الأصنام، وحاول هو هدايتهم، فلم ينجح، فإذا دعا العرب إلى مثل ما دعا إليه قومه ولم ينجح، وبقي العربُ على عبادة الأوثان، لم يطعنْ ذلك في ذهاب إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ إلى مكة، بل إنَّ المنطقَ ليؤيد رواية التاريخ، فإبراهيم ـ عليه السلام ـ الذي خرج من العراق فاراً من أهله إلى فلسطين وإلى مصر، رَجُل أَلِفَ الارتحال، وألف اجتياز الصحارى، والطريق ما بين فلسطين ومكة كان مطروقاً من القوافل منذ أقدم العصور، فلا محلَّ إذنٍ للريبة في واقعة تاريخية انعقد الإجماع على جملتها.

والسير (وليم موير) والذين ارتأوا في هذه المسألة رأيه يقولون بإمكان انتقال جماعة من أبناء إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ بعد ذلك من فلسطين إلى بلاد العرب، واتصالهم وإياهم بصلة النسب، وما ندري وهذا الإمكان جائز عندهم في شأن أبناء إبراهيم وإسماعيل

ـ عليهما السلام ـ كيف لا يكون جائزاً في شأن الرجلين بالذات، وكيف لا يكون ثابتاً قطعاً ورواية التاريخ تؤكده، وكيف لا يكون بحيثُ لا يأتيه الريب، وقد ذكره القرآن، وتحدثت به بعضُ الكتب المقدسة الأخرى؟.

ننقل هذا النقاش بأجمعه لنبيّن كيف يُصيبُ الكاتب الكبير مقطع الحق من أقرب طريق، وله في كثير من فصول الكتاب قوة نقدية ذات براعة ملجمة، ومناقشتُه الحاسمة لما عرف بحادثة الغرانيق؛ ولما افتراه المفترون عن زواج الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ بزينب بنت جحش بعد طلاقها من زيد. ولما خاض به السفهاء في تعدد زوجات رسول الله ﷺ؛ تدلُّ على أنه كان مؤيداً بروح الحق، وإذا كان بعضُ سالفيه قد تعرّض لما تعرّض له مؤلف (حياة محمد) ﷺ، فقد أضاف الدكتور هيكل لسابقيه حُججاً شافيةً، وصال صولاً جهيراً لا يكاد يتعلّق أحد بغباره.

ومن العجب العجاب حقاً أنَّ أدعياء البحث في (السيرة النبوية) بعد ظهور هذه البحوث الشافية للدكتور هيكل يردون موردها، ويملؤون المجلات مردّدين ما قاله، وكأنهم أصحابها الحقيقيون، وكان عليهم أن يعرفوا للكاتب الكبير فضله، وألا يفضحوا أنفسهم بالنقل من كتاب مشهور، وليتهم إذ سرقوا أفكاره وبراهينه استطاعوا أن يحافظوا على ديباجته البيانية البارعة، ولكنّهم نقلوا الحجج الدامغة بتعبيرهم المتخاذل، جاؤوا بهيكلٍ عظمي عرّي من الدم واللحم! ويُلقي ظلاً من الكآبة في نفس قارئه! وما عليهم وقد أرادوا أن يشتهروا بالبحث أن يقتبسوا كلام الرجل شكلاً وموضوعاً وينسبوه إليه، ليكون ما ينقلونه وحده هو الواحة الخضراء في صحراء قاحلة تمور بها الأعاصير قاذفة بالرمال! وكم يلقى بها السالك من عناء.

أوضحنا من غير لبس إعجابنا بالتحليل الأدبي الرائع في كتاب (حياة محمد) ﷺ ولا بد أن يقفَ القارئ على بعض النماذج، ولا إخاله سيتعبُ حين يجدني أنقل بعض ما قال، فهو الكاسب حقاً، إذ يستمع إلى (هيكل) الأديب البارع يحدّثه عن تأمل الرسول ﷺ في صدر شبابه فيقول[1]: «ومما زاده انصرافاً إلى التفكير والتأمل اشتغاله برعي الغنم سنيِّ صباه تلك. فقد كان يرعى غنم أهله، ويرعى غنم أهل مكة، وكان يذكر رعيه إياها مغتبطاً، وكان يقول: «ما بَعَثَ الله نبياً إلا رعَى غنماً، وبُعثتُ وأنا أرعى غنم أهلي بأجياد»، وراعي الغنم الذكي القلب يجد في فسحة الجو الطلق أثناء النهار، وفي تلألؤ النجوم إذا جن الليل موضعاً لتفكيره وتأمله، يسبحُ معه في هذه العوالم، ويبتغي أن يرى ما وراءها، ويلتمس في مختلف مظاهر الطبيعة تفسيراً لهذا الكون وخلقه، وهو يرى نفسه ما دام زكي الفؤاد، عليمَ القلب بعض هذا الكون غير منفصل عنه، أليس يتنفس هواءه ولو لم يتنفسه قضى؟.

أليست تحييه أشعةُ الشمس، ويغمره ضياءُ القمر، ويتصل وجودُه بالأفلاك والعوالم جميعاً؟ هذه الأفلاك والعوالم التي يراها في فسحة الكون أمامه متصلاً بعضُها ببعض في نظامٍ محكم ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ﴾ [سورة يسٓ: ٤٠].

وإذا كان نظام هذا القطيع من الغنم أمام محمد ﷺ يقتضي انتباهه ويقظته حتى لا يعدو الذئبُ على شاة منها، وحتى لا تضل إحداها في مهامه البادية، فأيُّ انتباهٍ وأية قوة تحفظ على نظام العالم كل أحكامه؟!

---

(١) حياة محمد، ص١١٦.

وهذا التفكير والتأمل من شأنهما صرف صاحبهما عن شهوات الإنسان الدنّيا، والسموّ به عنها، بما يبديان من كاذب زخرفها، لذلك ارتفع محمد ﷺ في أعماله وتصرّفاته عن كل ما يمسُّ هذا الاسم الذي أطلق عليه بمكة وبقي له، وهو (الأمين).

ثم يقولُ الدكتور هيكل متابعاً حديثه: «إنَّ حياة التأمل والتفكير وما تستريحُ إليه من عمل بسيط كرعي الغنم، ليست بالحياة التي تدرُّ على صاحبهما أخلاف الرزق، وتفتح أمامه أبواب اليسار، وما كان محمد ﷺ يهتم لذلك أو يُعنى به، وقد ظلّ حياته أشد الناس زهداً في المادة، ورغبة عنها. وما إقباله عليها، والزهد فيها إلاّ بعضُ طبعه، وكان لا يحتاج من الحياة إلى أكثر مما يقيم صلبه، أليس هو القائل:

«نحن قوم لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع»؟ أليس هو الذي عُرف عنه كلّ حياته حرصه على شظف العيش، ودعوة الناس إلى خشونة الحياة؟ والذين يتوقون إلى المال، ويلهثون في طلبه، إنما يبتغونه لإرضاء شهواتهم، ولم يعرف محمد ﷺ طوال حياته شيئاً منها، واللذة النفسية الكبرى لذة الاستمتاع بما في الكون من جمال، ومن دعوة إلى التأمل، هذه اللذة العظيمة لا يعرفُها إلا الأقلون، والتي كانت لذَةَ محمد ﷺ منذ نشأته، ومنذ أرته الحياة في نعومة أظافره ذكريات بقيت مطبوعةً في نفسه، داعية إلى الزهد في الحياة، وأُولاها موتُ أبيه، وهو ما يزال جنيناً، ثم موت أمه وموت جده! هذه اللذة ليست في حاجة إلى ثروة من مال، وإن تكن في حاجة إلى ثروة إنسانية طائلة، يعرفُ الإنسان معها كيف يعكف على نفسه، ويعيش بها وفي دخيلتها، ولو أنَّ محمّداً ﷺ تُرك وشأنه يومئذٍ لما نازعتْه نفسُه إلى شيءٍ من المال، ولظلّ سعيداً بهذا الحال، حال الرعاة

المفكرين الذين ينتظمون الكون في أنفسهم، والذين يحتويهم الكون في حبة قلبه»[1].

ياالله! كم لهذا التحليل الرائع من أمثال يراها القارئ في أماكن كثيرة متصلة من الكتاب، يراها عند وقفة الكاتب لدى قول أبي طالب لابن أخيه، ص١٤٣: «أبْقِ عليَّ وعلى نفسِك ولا تحمّلني ما لا أطيق»، إذ ينشط القلم السيال ليتحدّث عن هذه الوقفة التاريخية، التي يخشعُ الوجود لها، منتظراً ما تقوله شفتا الرسول ﷺ، أيقصر عن مقاومة الباطل فتطغى المجوسية، وتتجبر الوثنية، أم يهتف بعزيمة الإيمان، ليحرر العقول من أسر الأوهام، فليؤدّ رسالته، ولخيرٌ له أن يموتَ مؤمناً بالحق من أنه يعيش ساكتاً عن الباطل، لقد التفت الرسول ﷺ قائلاً لعمه: «والله لو وضعوا الشّمسَ في يميني والقمرَ في يساري على أن أتركَ هذا الأمرَ حتى يظهِرَه الله أو أهلِكَ دونه ما تركتُه».

يقول الكاتب: لقد اهتز أبو طالب لما سمع، ووقف مبهوتاً أمام هذه القوة القدسية، والإرادة السامية فوق الحياة، وكلّ ما في الحياة، وقام محمد ﷺ وقد خَنقته العبرةُ مما فاجأه به عمه، وإن لم تدرك نفسُه خلجة ريْب في السبيل الذي يسلك، ولم تكن إلا لحظة اهتزّ فيها وجودُ أبي طالب متحيراً بين غَضْبة قومه، وموقف ابن أخيه، حتى نادى محمّداً ﷺ أنْ أقبل، فلمّا أقبلَ قال له: «اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببتَ، فواللهِ لا أسلمُك لشيءٍ تكرهُه أبداً».

ويرى القارئ أمثالَ هذه الوقفات الرائعة حين يتحدّث عن قصة ابن

---

(١) حياة محمد، ص١١٨.

أمّ مكتوم، وانصرافِ الرسول ﷺ عنه إلى كبراء قريش طامعاً في إسلامهم، وطرحهم الجمود البالي فيتساءل (هيكل)، ص١٧١: أحقاً إن السنين تُنسِي النفوس جمودها ومحافظتها على القديم البالي؟ إنما يكون ذلك عند الممتازين ممن تنزع نفوسهم للكمال، فما يزالون يقلّبون الحقائق التي آمنوا بها من قبلُ، لينفوا ما يعلق بها من زيف بالغةً ما بلغتْ تفاهته، وهؤلاء كأنَّ قلوبهم وعقولهم بوتقة دائمة الغليان، تقبل كلَّ جديدٍ من الرأي يلقى إليها، فتصهره وتطهره، وتنفي خبثه، وتستبقي ما به من خير وحق وجمال، وهؤلاء يلتمسون الحقَّ في كلِّ شيء، وفي كلِّ مكانٍ وعلى كل لسانٍ، بيد أنهم في كلِّ أمةٍ وعصرٍ همُ الصفوة المختارة، وهم لذلك قلة أبداً، وهم يجدون الخصومة ناشبة على أشدها بينهم وبين ذوي السلطان، إذ يخافون من كلِّ جديدٍ أن يجني على سلطانهم، ثم يستعدون السوام بتقديس الصروح التي نخرَ فيها السوس على من يدعو إلى الحق الصريح، والسوام ينصرونهم إذ ينظرون إلى أرزاقهم التي في أيديهم، ولا يسهل عليهم أن يعلموا أنَّ الباطل قريبُ الأمدِ، وأنَّ الحقَّ على وشك البزوغ.

وقد يتحفّظ بعضُ النقاد على الإسهاب في هذا التحليل، لأن نفسية الرسول ﷺ لا يصل إلى استشفافها إلا مَنْ رُزق إحساسه! وأين هو؟!!.

فإذا تركنا تحفظنا الحذر على بعض التحليلات النفسية، التي سجلها المؤلف الكبير إلى تحليلاته الاجتماعية أو السياسية فإننا لا نرى سوى الإعجاب المطلق بما يُبديه الكاتب من عمقٍ دقيق في فهمه الصحيح للأحداث، والغوص على فلسفة عامة تنتظم مجريات الأمور انتظاماً طبيعياً لا نشازَ فيه.

وقد استوعب المؤلف الأصول التشريعية والخلقية للإسلام استيعاباً أخذ يفسر به كلَّ موقفٍ من مواقف الدعوة الإسلامية في طورها الأول، وهو بهذا الاستيعاب البصير لا يخطئ موضعَ النظر السديد.

وقد تتابعت فصول الكتاب حافلةً بشتى النظرات الفكرية الصائبة، بحيث تتسلسل الأحداثُ تسلسلاً منطقياً يبدأ بالمقدمات، وينتهي بالنتائج.

ولئن كانت هذه الأحداث غير جديدة على القارئ، فإنّ تفسيرَها المنطقي هو الجديد، وفي نطاق هذا التفسير تكمل صورتها على وجه واضح القسمات، ساطع الملامح، حتى لترى من خلفه نبضات الدم، واختلاج الأسارير.

وقد تعمق المؤلف في دراسة اليهودية والمسيحية ليتحدث عنهما في مجال المقارنة بما جاء به الإسلام، وظهر هذا الحديث المقارن في أكثر من موضع في الكتاب، ونستشهد لذلك بما علّق به الكاتب على معاهدة الرسول ﷺ لليهود بالمدينة في أول عهده بيثرب، حين دعا - ﷺ - إلى حرية الاعتقاد، وصداقة الارتباط، متطلّعاً إلى تمكينه السريع العاجل من نشر دينه، وإقامة دولة تحميه، وكان الأنبياءُ من قبله يبلّغون كلمة الله فحسب، ويتركون لمن بعدهم من السّاسة أن يعملوا على نشر دعوتهم بالمقدرة التي تتاح لهم بمرور الأعوام بعد رحيلهم بزمن طويل.

ومحمد ﷺ هو الذي جنى ثمار النصر حين جعلَ من المسلمين قوةً مرهوبةً، تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتنتصر على الأعداء تحت رايته الظافرة، فوقف خلفاؤه من بعده على أرض صلبة، وطّدها بجهادِه، ولم يسلمهم إلى فراغٍ يبحثون فيه عن موطئ للأقدام.

أما التفسيرُ الخلقيُّ لشمائل الإسلام، فقد أحسنَّ الكاتب إيضاحه حين اتخذ من رسول الله ﷺ المثل الأعلى لهذه الشمائل الكريمة، فتحدث عن ذلك في الفصل الحادي عشر عن العهد الأول للمسلمين بيثرب إذ قَدِمُوا إليها مهاجرين، وإذا كان الإخاء المتماسك طابع هذا العهد، فقد أرسى رسول الله ﷺ قواعدَه على الحبِّ والبِرِّ والرحمة، وأبى أن يظهر وهو قائد الدعوة الإسلامية ما يدل على السلطان أو الملك، وأخذ يقول لأصحابه: «لا تطروني كما أطرتِ النصارى عيسى ابنَ مريمَ، إنما أنا عبدُ الله ورسوله».

وهكذا يجودُ الكاتب بأمثال هذه الروائع الفريدة في صفحات نيّرة وضيئة! والعجيب أنَّ ما ذكره الكاتبُ مشتهرٌ معروف، ولكنّه في سياقه المطرد ومكانه اللائق يلوحُ كالطريف الجديد.

ونحن نعرف كيف قام أهلُ الكتاب من اليهود والنصارى بمجادلة الرسول ﷺ ومساءلته الملحة من غير إذعان للحق أو خضوع للدليل، ونعرف أنَّ الرسول ﷺ قد ضاق بلجاجهم المتعنت، ثم شاء أن يحسم الموقف، فتلا عليهم قول الله ـ عزَّ وجلّ ـ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران ٦٤]، وقد أشار الكاتب إلى ذلك كله ليعقِّب عليه بقوله الرائع: ماذا يستطيعُ اليهود أو يستطيع النصارى أو يستطيع غيرُهم أن يقولوا في هذه الدعوة: ألاَّ يعبدوا إلاَّ الله، ولا يشركوا به شيئاً، ولا يتخذَ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله، فأما الروح المخلصة الصادقة، فأمّا النفس الإنسانية التي كرّمت بالعقل والعاطفة، فلا تستطيع إلا أن تؤمن بهذا دون غيره،

لكن في الحياة الإنسانية إلى الجانب النفسي جانبها المادي، فيها هذا الضعف الذي يجعلنا نقبل لغيرنا سلطاناً علينا بثمن نشتري به أنفسَنا وأرواحنَا وقلوبنا، فيها هذا الغرور القتّال للكرامة والعاطفة، ولنور النفس العاقلة، هذا الجانب النفسي المصوّر في المال والجاه، وفي كاذب الألقاب والرتب، هو الذي جعل أبا حارثة أكثر نصارى (نجران) علماً ومعرفةً يدلي إلى رفيق له باقتناعه بما يقول محمد ﷺ، فلمّا سأله رفيقه، فما يمنعك منه وأنت تعلمُ هذا؟ كان جوابه: يمنعني ما صنعَ بنا هؤلاء القوم، شرّفونا وموّلونا وأكرمونا، وقد أبوا إلا خلافه، فلو فعلتُ نزعوا مِنّا كلَّ ما ترى[1].

وبعد فقد عاش المؤلّف أحداثَ السيرة بقلبه، وامتلأ بها جنانه، واستنشقت رئتاه عبيرَها المنعش، فكتب مؤلَّفه الرائع، لم يكد يغادر مما تعورف من هذه الأحداث شيئاً! وقد أطرى المادحون صنيعه إطراءً لا مبالغة فيه.

* * *

---

(١) حياة محمد، ص٢٣٤.

في منزل الوحي

قارئ كتاب (حياة محمد) ﷺ يحتاج إلى أن يتمَّ حديثَ رسول الله ﷺ بقراءة كتاب (في منزل الوحي) لأنّ السيرة النبوية المطهرة تتصل اتصالاً عضوياً بهذين الكتابين، والفرق بينهما أنَّ الحديث عن الرسول ﷺ في كتاب (حياة محمد) ﷺ موضوعيٌّ، بمعنى أنّ المؤلف قد خَلُص إلى المصادر التاريخية يستنبئها اليقين، حتى إذا اكتمل له ما أراده، أفرغ ما انتهى إليه في دراسة منهجية لها حَدوُدُها العلمية، التي لاتسمحُ للكاتب أن يُغيّر فيها أو يبدّل، وإذا تجلّت عواطفه الدافقة في التعّقيب والتحليل، فذلك ثمرةُ هذه الدراسة الموضوعيّة ذاتِ المنهج المحدد.

أما (في منزل الوحي) فكتابٌ ذاتيٌ أكثر منه موضوعياً، لأنّ فكرته الأولى هي وصفُ الرحلة الحبيبة إلى ديار رسول الله ﷺ، فخواطرُ الزائرُ المشوق ترفرفُ على قلمه، فتتيحُ له من الأشواق والمواجدِ ما لا تُتيحُه مصادِرُ التاريخ، فإذا ألـمَّ بالحدثِ التاريخي حين يزور موقعه المكانيّ فهو إلمامٌ تزدحم فيه المشاعر المؤمنة، وتنطلِقُ الأشواق الحبيسة إلى أبعد مُرمًى تصل إليه، ومن هنا كانت قراءةُ الكتابين ضروريّة للقارئ المؤمن، فإذا غَذّت (حياةُ محمد) ﷺ عقله، فإنّ كتاب (في منزل الوحي) يُحيي وجدانـه، وليـس معنى هذا إقامـة الفوارق الحائلة بين كتابٍ وكتابٍ، فللعاطفة مكانُها الفسيح في كتاب (حياة محمد) ﷺ وللعقل مكانُه المطمئن في كتـاب (في منزل الوحي)، ولكنّ معنـاهُ أنّ الروح العلميّة أظهرُ في

الكتاب الأوّل، والانسياب العاطفي أوضحُ في الكتاب الثاني.

والحقّ أنَّ المؤلف الكبير قد شعر في أطواء نفسِه بعد كتابة (حياة محمد) ﷺ أنَّ شيئاً كثيراً من سيرة الرسول ﷺ لم يُقلْ، وأنَّ هذا الشيء لا يتمّ تسطيره إلاّ بعد زيارة مهبط الوحي الشريف، وليس ما أقولُه تخميناً أوحت به قراءتي الخاصة، وإنما هو واقع فعلّي عبّر عنه الكاتب الكبير حين قال[1]:

«شعرتُ آخر الأمر أنّني سأظلّ ينقصني جوهرُ ما أبحثُ عنه إذا لم أذهبْ إلى بلاد النبيِّ العربيِّ ﷺ بنفسي، ولم أقفْ حيثُ وقفَ فيما مرَّ به من أدْوار حياته، ولم أمهّد لذلك في حُدود الطاقة بالبيئة العامة التي نشأ فيها، وإنّما كنتُ أفكّر في هذا لأتمَّ به بحوثي في السيرة، فأمّا أن أجعله موضوعَ كتابٍ مستقل فذلك ما لم يدُر بخلَدي باديَ الرأي، فلمَّا ذهبتُ إلى الحجاز، وتجوّلت فيه، تبيّنتُ أنّ ما قمت به من بحوث يتعدى السيرة إلى عُصور إسلامية كثيرة، ويمتدّ إلى عصرنا الحاضر، لذلك رأيتُ من الخير أن أطالع القرّاء بكتاب مُستقلّ يتناول ما رأيتُ، ويتناولُ ما أحسستُ به حين كَرَرتُ بالزمن راجعاً إلى عهد الرسول ﷺ، وما كان بعد ذلك، من حياة المسلمين في عهدهم الأوّل، ثم ما أصاب البلاد الإسلامية المقدّسة بعد ذلك إلى وقتنا الحاضر مع الإشارة الموجزة إلى ما أرجو أن يكونَ القدرُ خطه في لوحه لهذه البلاد العربية يوم ينصر الله دينه على الدين كلّه».

وإذنْ فالتعريف بالجزيرة العربية في القديم والحديث من أهداف

(١) في منزل الوحي، ص١٠.

الـرحلة التي خطّها الكاتب، وَوفْقَ هذا الهدف جاءَ كتابُه القيم في ستة فصول بين المقدمة والخاتمة، فتحدّث في الباب الأول عنْ عزم السفر إلى مكة، وعن الميناء الذي انتهتْ إليه الباخرة، وعن العمرة بمكة، ووقفةِ عرفات، وعنْ أيام التشريق، كما يتحدّث في الباب الثاني عن البلد الحرام وعن (عبد العزيز آل السعود) عاهل الحرمين، وعن الجمعة في الحرم، وعن مشهد الكعبة يوم الحجّ الأكبر، وعن آثار مكّة المتمثلة في غارِ حِراء، وغارِ ثور وغيرهما.

أمّا الباب الثالث فخاصٌّ بالطائف وآثارها، وقد تحدّث الكاتبُ عنْ أسواق العرب بما لم يتحدّثْ به أحدٌ من قبله[1]. لأنّ كتاب الأستاذ (محمد سعيد الأفغاني) (أسواق العرب) لم يكُنْ قد ظهر بعدُ، حيثُ استكمل كلَّ ما يمكن أن يقال عن هذه الأسواق.

وفي البـاب الرابع تحدّث عما بين الحرمين المكي والمدني من مشاهد، وهو حديثٌ موجزَ بطبيعة موضوعه.

أمّا الباب الخامس فخاصّ بمدينة الرسول ﷺ وهو أقوى أبواب الكتـاب تحليلاً واستيعاباً ووصفاً، إذا أفاضَ في حديثـه عن المسجد النبوي، والمدينة الحديثة، وآثار المدينة القديمة، وجنّةِ البقيع، وقبر حمزة سيد الشهداء رحمه الله، كما كانت وقفتُه الشاعرة أمام الحجرة النبوية الشريفة من أنفسِ ما قال الكُتّاب في هذا الصدد، متنقلاً إلى الكلام عن ظاهر المدينة وزيارة الوداع.

---

(١) قد سبقه إلى ذلك الأستاذ خير الدين الزركلي في كتابه (ما سمعتُ وما رأيت) ط. القاهرة ١٩٢٤، والأمير شكيب أرسلان في رحلته الحجازية (الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف) ط. المنار ١٩٢٩. (الناشر)

وجاء الباب السادس والأخير ليتحدّث عن بدر وشهدائها، وعن أوبـة الرضا، منتهيـاً إلى الخاتمة، وهي ذاتُ شـأن في إيضاح مستقبل الإسلام، وما يقوم في وجهه من العواثير، ومن الواجب أن تكونَ موضع دراسة مستوفاة لدى من يهتمون بهذه الشؤون، وهذا العرضُ السـريع لأبواب الكتاب يدلّ دِلالةً على محتواه، يدلّ دلالةً العُنوان فحسب، لأنّ ماتحتَ العنوان من الخواطر المُؤمنة لجٌّ زاخرٌ مواج، يهزّ النفس بجيشانه، وتدفّقه واصطفاقه.

وسأحاولُ في حديثي عن هذا الكتاب بالذات أن أتكئ على المؤلّف حين أنقل بعضَ خواطره، لأصل بينه وبين قارئ هذه الصفحات عن طريقٍ مباشرةٍ يدفعه إلى استيعاب هذا الكتاب الجليل، لأنّه لم يأخذْ حقّه من التحليل المُشبع كما حظي بذلك كتاب (حياة محمد) ﷺ بل وَجَد من انتقصَه لقصورٍ في ذات الناقد، حيثُ لم يستطع أن يُحلّق في أفقه الرحب بجناحه الضعيف، ثم هو لا يعلم من أمر ضعفه ما يعلمه أُولُو العلم، فتطاول واستَعْلى استعلاءً، كأنه موضع الرحمة من قارِئه الحصيف، ومما يدّل على أنَّ هذا الكتاب لم يأخذْ حظّه من التنويه أنّ الإمام الأكبر الأستاذ (محمد مصطفى المراغي) كتب عنه كلمةً ممتازة نُشرت بمجلة (الإسلام): ١٩٣٧م، وهي مجلةٌ محدودةُ الانتشار فلم تُذع كلمتُه الممتازة على أوسع نطاق كما ذاعتْ كلمتُه الرائعة عن كتاب (حياة محمد) ﷺ حين جُعلت مقدمةً للكتاب، فسارت كلَّ مسار، وتناقلها أهلُ العلم مقدّرين!.

ولعلّ من توفيق الله للكاتب أنَّ رحلة الحج قد جاءتْ عقب تأليف كتـابه (حياة محمد) ﷺ لأنّهـا لو جاءتْ قبله ما كانت تسـمحُ لخواطره المثقّفة الدارسة أن تجيشَ هذا الجيشان، لأنّ ما علمه قبلُ من أحداث

السيرة كان نوراً يهديه، وهذا بعض ما عبَّر عنه حين قال في تقديم الكتاب[1].

«وكان حديثُ الآثار الصحيحة التي وقفتُ عندها، كلّهُ البلاغةُ في التعبير عما تدلّ عليه، وتُوحيه إلى النفس من آي الجلال والعظمة، فجبلُ حراء، والغارُ في قمته، ومسجدُ عُدّاس بالطائف، ومسجد العقبة وجمرتها، وجبلُ ثور مُتخبأُ رسول الله ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه بالغار فيه، والطريقُ الذي سلكه النبي ﷺ إلى المدينة حين هجرته من مكة، ومسجدُ قباء، والمسجد النبوي، والآثار الكثيرة المختلفة بالمدينة، وميدانُ بدر، حيث وقعت الغزوة الأولى بين قريش والمسلمين، هذه المواقعُ وما إليها كانت تُثير أمام ذهني ذكرياتٍ مليئة بالحياة، كأنّها حدثتْ بالأمس، وكانت تُوحي إليَّ معاني الإكبار والإعظام، وتزيدني إجلالاً لهذه الأماكن، في صمتها العميق، الذي لم يغير منه توالي القرون، ولقد كان ما أوحته هذه الأماكن مما حاولت تصويره في هذا الكتاب أبلغ مما استطاع قلمي أن يصفه أضعافاً مضاعفة».

وقد تواضع الكاتب أشدّ التواضع حين ذكر أنّ كتابه ليس مرجعاً من مراجع التاريخ الإسلامي، ولا شيء فيه من تقويم العرب، إنما هي وقفاتٌ وقفها الكاتب في بلاد الوحي ومنزله، مُلتمساً العبرة والأسوة، وآملاً أن يُشرِكَ فيهما القرّاء من المؤمنين[2].

هذا التواضع لا يُدلّ على الواقع العلمي للكتاب، فكُتُبُ الرحلات

---

(١) في منزل الوحي، ص١٤.

(٢) المرجع السابق، ص٢٠.

في القديم والحديث مراجعٌ هامةٌ تتصدر بحث المؤرخين، مع أنّ بعض كُتّابها لم يرتفع في الأداء إلى مرتبة الجودة المنشودة، فكيف لا يكونُ كتابٌ يخطّه هيكل عن رحلة إلى مهبط وحي رسول الله ﷺ مرجعاً تاريخياً؟

ولنفرض جدلاً أنّ ما ذكره من أحداث السيرة العاطرة معروفٌ وذائع، فماذا تقول عن بحوثه الفيّاضة عن الحجاز في عهده الراهن؟ وعن المسلمين في بقاع الأرض، وما أصابهم من جمود؟ وعن هجمات الاستعمار وحيله الدنيئة في نشر الأراجيف، وإذاعة عوامل الفُرقة؟ وعن النهضة الأخلاقية ووسيلتها في الرجوع إلى التراث الإسلاميِّ الصحيح، منار الاهتداء؟ وعن مقابلاته العديدة لكبار القوم من مُلوك وأمراء ورؤساء ووزراء، ومادار بينهم وبينه من أحاديث الإصلاح، والعمل على الارتقاء! أليس كلّ هذا تاريخاً سيقرؤُه الخلَفُ، فيكونُ مرجعاً من مراجع الإسلام في العصر الحاضر.

الحقّ أن كتاب (في منزل الوحي) مرجعٌ لسيرة النبي ﷺ من ناحية، ومرجعٌ لمعرفة أحوال العالم الإسلامي في النّصف الأول من القرن العشرين من ناحية ثانية، وقارئُه يستريحُ استراحةً تامة لما يُبديه الكاتب من آراء، وإن اختلف معه في بعضٍ منها، لأنّ الاختلاف بين ذوي الفكر أداةُ نشاطٍ عمليّ يقومُ على البحث والمراجعة والتصويب، والمؤلّفُ سعيدُ بما يدورُ حول كتابه من الاختلاف، إذ هو دليل جودته وحويّته، وكم كتابٍ لمؤلّف شهير يمرُّ مروراً هادئاً، فلا يكادُ يسمعُ عنه أحد، أفيكونُ هذا الصمتُ الأليم دليل التقدير وسرّ الإعجاب!! إنَّ النقد الهادف هو ميزان التقدير والتبجيل، وقد أُلّفتْ في كتاب (في منزل الوحي) كُتُبٌ مستقلة، بعضها ذو نقد خاطف. وبعضها عميقٌ جليل، وهذا بعضُ حقه، لأنَّ حقَّه

الكامل لم يتح بعد، كما أشرتُ إلى ذلك من قبل!.

وأحسن ما اتّجه إليه الدكتورُ هيكل في كتابه هو استلهامُه العبرةَ من التاريخ، حين يشرحُ مآسي العصر الحاضر، ففي زمننا الكئيب الذي سادت فيه القوميّات أوروبيّة وعربيّة، وأصبحتْ كأنّها المثل الأعلى للرقيّ الحضاري في الوطن المتطلّع للسيادة، خَفَتَ صوتُ الدعوة إلى الوحدة الإسلامية، وكأنّها مرضٌ يجب الفرار منه، إذ هي مدعاةُ التأخر في بلاد الإسلام، ونشطتْ أقلامٌ مأجورة، تُحرّم أن يكون الدين عاملاً من عوامل القومية المزعومة، وهنا صدع الدكتور هيكل بالحقّ الجريء حين قال[1]:

«والفكرة الإسلامية المبْنيّة على التوحيد في الإيمان بالله تنزعُ في ظلال حرية الفكر إلى الوحدة الإنسانية، وحدة أساسها الإخاء والمحبّة، فالمؤمنون في مشارق الأرض ومغاربها إخوةٌ يتحابون بنور الله بينهم، وهم لذلك أمةٌ واحدة، تحيّتها السلام، وغايتُها السلام، وهذه الفكرةُ الإسلامية تخالفُ ما يدعو إليه عالمنا الحاضر من تقديس القوميات[2]، وتصوير الأمم وِحْداتٍ تتنافس بحكم السيف، وتُحكّم أسباب الدمار بينها فيما تتنافس عليه، **ولقد تأثّرنا معشر أمم الشرق بهذه الفكرة القومية، واندفعنا ننفخ فيها روحَ القوة، نحسبُ أننا نستطيعُ أن نقف بها في وجه الغرب، الذي طغى علينا وأذلّنا، وخُيّل إلينا في سذاجتنا أننا قادرون بها**

---

(١) في منزل الوحي، ص٢٤.

(٢) القومية وعاء إنْ مُلِىءَ بالإسلام فهي نور على نور، وإن مُلئت بأفكار علمانية صليبية تارة وصهيونية وماركسية تارة أخرى فماذا ينفع صفاء الإناء إذا خبث الشراب الذي فيه، ما أشبه القومية التي تبهرج بكعبة اليمن أقيمت لصرف الناس عن بناء كريم كل ذنبه أنه بواد غير ذي زرع، واليوم تسوّق الصليبية والصهيونية تحت اسم برّاق هو العولمة فالحذر الحذر!! (الناشر)

وحدها على أنْ نعيد مجد آبائنا. وأن نستردّ ما اغتصب الغرب من حُريتنا، وما أهدر بذلك من كرامتنا الإنسانية، ولقد أنسانا بريقُ حضارة الغرب ما تنطوي هذه الفكرة القومية عليه من جراثيم فتّاكة بالحضارة التي تقوم على أساسها وحدها، وزادنا ما خيّم علينا من سُجف الجهل إمعاناً في هذا النسيان.

على أنَّ التوحيد الذي أضاء بنوره أرواح آبائنا، قد أورثنا من فضل الله سلامةً في الفطرة، هدتنا إلى تصوّر الخطر فيما يدعو الغرب إليه، وإلى أنَّ أمةً لا يتصلُ حاضرها بماضيها خليقةٌ أن تضلّ السبيل، وإلى أنَّ الأمة التي لا ماضي لها، لا مُستقبلَ لها، لذلك لم يكنْ لنا مفرٌّ من العوْد إلى تاريخنا، نلتمسُ فيه مقوّمات الحياة المعنوية، لنخرج من جمودنا المذلّ، ولنتّقي الخطر الذي دفعت الفكرة القومية الغربَ إليه، فأدامتْ فيه الخصومة بسبب الحياة المادية التي جعلها الغرب إلـٰهه».

وأعظمُ ما يبهرني من صفحات التاريخ المعاصر في هذا الكتاب ماتحدّث به الدكتور هيكل عن الأمن والأمان في العهد السعودي بالجزيرة العربية، إذ وصف ما كانت عليه قبل ذلك من اضطراب وعُدوان، حيث أصبح الحاجُّ القادمُ من بلاد الإسلام خائفاً على نفسه من شراذم قطّاع الطريق، الذين يُهاجمون القوافل، وينهبون المال، ويسفكون الدماء بغياً دون حق، وذلك تاريخٌ سُجّل في الصحائف، وهتف الشعراء بمآسيه حقبةً من الدهر، ولكنّ يد الله هيأت (عبد العزيز بن سعود) ليردّ على البلد أمنه، وعلى الإسلام كرامته، إذ ينوش الآثمون وفودَ الحرمين الشريفين بأفتك الأسلحة، وكأنّهم أعداء مهاجمون، لا ضيوفٌ قادمون! والفضل الذي تحدّث فيه الكاتب الكبير عن (ابن السعود بمكة) يغني عن صحائف كثيرة

كُتبت في هذا المجال، كما يُفصح عن أدق الأسرار السياسية بين مصر والحجاز في حقبة أليمة تأصّلتْ فيها دواعي الشقاق، وسعى المغرضون بالتفرقة، فزادوا النار التهاباً، ولكنّ حكمة الملك عبد العزيز قد استطاعت أن تخمد الحريق، بما وُهبَ من بصيرة نافذة، وإيمان مكين.

ومن أروع الصحف وأبهاها نضارةً وإشراقاً ما كتبه المؤلف عن مواقف التاريخ الحاسمة في حياة الرسول ﷺ، حيث فاضتْ مشاعره بأرقى ما يُتصور من أساليب البيان حين يغمره الخشوع القانت في مهابط الجلال والسموّ، فإنّه يكادُ أن يكون شاعراً ينطقُ بأعذب الألحان، وهل الشعرُ في مراقيه العالية إلاّ استجاشةً لفيوض العزة والكرامة من تاريخ نبيّ رفع الإنسانية من أسفل الوهاد إلى أعلى الذروات؟.

ويضيقُ المقام عن الاستشهاد بهذه الروائع، ولكني أنقل صورةً هادئةً تصوِّرُ مشاعر الكاتب الكبير حيالَ (غار حراء) وهي صورةٌ لها أشباهٌ كثيرة فيما كُتب بُعد عن أعلى المشاهد، وأرفع الذكريات، يقول الأستاذ هيكل[1]:

«ها هو ذا محمدٌ ﷺ يسيرُ وحيداً منفرداً، حاملاً من الزاد ما لا ينوء رجل بحمله، يخترقُ طرق مكة من جنوبها إلى شمالها، حيث يقومُ هذا الجبل، وها هو ذا سفحُ حراء يصعدُ إليه وسيما التفكير مرتسمةٌ على قسماتِ محيّاه، وليس فيما حوله من أسباب الحياة ما يُرفّه عن تفكيره، أو ينبّهه إلى جديد في الحياة، ويستمر في تصعيده، وزادُه معه حتى يبلغَ قمة الجبل، هنالك يجدُ ماءَ المطرِ القليل قد اختزنته بعض أخاديد شعابه،

---

(١) في منزل الوحي، ص٢٢٧.

فيجلسُ على مقربةٍ من هذا الماء، ومن غارٍ قريب منه، هو مأواهُ أثناء نومه، ويجيل بصره فيما حوله من خلق الله، ثم يرجِعُ البصرَ، ويغمضُ عينيه الواسعتين الجميلتين إغماضة تأمّلٍ وادّكار، فإذا جُنَّ الليل، وتألقت النجوم، وانتثرتْ في قبة السماء، أجالَ بصره فيها، وفكّر في أمرها، وفي خلقها، وقضى الليلَ متأمّلاً، يُقلّب في ذهنه كلَّ ما يقول قومهُ عن العالم والآلهة والملائكة، وفي هذه الأصنام التي يعبدون، ويُنسيه التفكيرُ نفسه، ويُنسيه طعامه ونومَه، ويذرهُ متعلقاً بما ينشد من حقيقة العالم والكون والوجود، ثم يستريحُ في الغار سُويعات، لا يلبثُ حين يقظته بعدها أن يعود إلى تفكيره، وإلى تأمله، وإلى نشدانه الحقيقة في أمر هذا الوجود».

تلك خطراتُ كاتبٍ مُؤمن، شاء أن يتخيّل عواطف الرسول ﷺ الشريفة، ولكنّي أرى مع ذلك، أنّ عواطف أعظم خَلْقِ الله جميعاً من بني الإنسان لا يقدرُ على تصوّرها على حقيقتها الرفيعة إلا نبيٌّ مثله، فمهما ارتقى كاتب في تصوّره، فلن يبلغَ معشار ما بلغه صاحب الرسالة العظمى في رفعة خواطره، وارتقاء مُثُله، ولكنْ حسبُ الكاتبِ أنَّ إيمانه قد دفعَ به إلى استجلاءِ صورةٍ كبيرة من منفذه الضيق، فصوّر منها ما استطاع أن يراه، وبقي مما لم يستطع تصويره الكثير والكثير.

وتصوير هيكل لمشاعره الخاصة حول غار حراء يذكّرنا بتصويره لما علمهُ من صحف التاريخ عن مبيت الرسول ﷺ مع صاحبه في غار ثورٍ عند الهجرة، وكان الكاتب الكبيرُ يصف نفسه وصفاً دقيقاً حين قال[1]:

---

(١) في منزل الوحي، ص٢٥٤.

«تمثّل لي المشهد ـ مشهد المهاجرين الكريمين ـ وأنا بمكاني في الغار، وبلغ من امتثالي إياه أن كدتُ أسمع حديث المطاردين مع الراعي، وأرى الفتى كما كان يراه أبو بكر، وامتلأ قلبي رُعْباً من هول ما أرى وما أسمع، وشعرتُ بصيحةٍ تكادُ تنطلق من صدري، وتنفرجُ عنها شفتاي، وكأنّي أهيبُ مستغيثاً بالذين يطاردونني: على رِسْلِكم، فهاأنذا مُسْلِمكم نفسي! لكنّ الفتيان الجلداء لا يطاردونني، بل يطاردون محمداً عبدَ الله ورسوله ﷺ ومنطق محمد ﷺ ليس كمنطقنا، لأنّ روحه ليستْ كروحنا، وإن كان بشراً مثلنا».

نعم، هنا اعترف هيكل بما قرّرتهُ من قبل، بأنَّ منطقَ محمدٍ ﷺ ليسَ كمنطقنا، وروحه ليست كروحنا، فمهما دقّقْنا في تصوير نوازعه الشريفة، فهي دون ما ارتقتْ إليه هذه النوازع من كمال، ولكنْ للمؤمن شوقه وهيامه برسول ربه ﷺ، وهذان: الشوقُ والهيامُ، يدفعانه إلى التصوّر المُرتقي إلى أعلى ما يُستطاع، وهو الحبّ يأبى إلا أن يفيض.

لقد أجملتُ الحديث عن موضوعات هذا الكتاب الرائع في عدّة سطور، وهو إجمالٌ عاجزٌ كسيحٌ بالنسبة إلى مُجلّدٍ بلغ في طبعته الأولى التي أرجعُ إليها، ستمئة واثنتينْ وسبعين من الصفحات، ثم زادت في الطبعات التالية إلى حيثُ لا أعلمُ، ولعلّي بتقصيري الذي أعترفُ به أدفعُ القارئ إلى مراجعة الكتاب من ألفه إلى يائه، فأكونُ بذلك قد غرستُ بذرةَ الشوقِ في نفسه، لتنمو وتورِقُ وتزدهر، فإذا بلغت ذلك، فقد فعلتُ الكثير.

* * *

الصدّيق أبو بكر

حين تقرأ مؤلَّفاً للدكتور هيكل تجد رُوحه مرفرفةً عليك بين السطور، فكتابُ (الصديق أبو بكر) كما كتبه هيكل ليسَ ككلِّ كتابٍ أُلّف في الصديق ـ وقد أُلّف فيه الكثير ـ لأنّ أكثر من كتبوا عنه، يجمعون الأخبار المدونة، ويسوقونها تحت عناوين تقليدية، مثل: نشأته، إسلامه، خلافته، حروبه، وفاته، وتقرأ ما كُتب، فلا تجد فرقاً واضحاً بين ما كُتب في سِفرٍ وما كُتب في سِفْرٍ آخر لهؤلاء الجامعين المُصنفين.

أما كتابُ (الصديق أبو بكر) لهيكل فقد تضمّن ما أشرتُ إليه من الفُصُول، وزادَ عليها بالحديث عن البيعة، وبعث أسامة، وشكوك المرتدين، ومبررات الفتوح الإسلامية، التي بدأت في عصره. وجمع القرآن، وما إلى ذلك مما قد يذكره التقليديون أيضاً، ولكنّه الذكرُ المباشر على طريقة السّرد المتّصل، أجلْ ذكر الدكتور هيكل ذلك كله، على نحو تحدّثَ عنه الأستاذ الكبير محمد فريد أبو حديد فقال[1]:

«جلا هيكلُ عصرَ الصديق، وصوّر من حوادثه صُوراً لا نظنُّ أنَّ أحداً استطاعَ أن يُصوّر مثلها من قبله، فهو قد تتبّع العصرَ من أوّله، ثم ما زال به حتى أتمَّ له صورةً بديعة ذاتَ ألوانٍ باهرة، أبرزَ كلَّ ملامحها،

(١) مجلة الثقافة ـ العدد ٢١٤، ٢/٢/١٩٤٣.

وألقى النور على تفاصيلها، حتى لم يبق فيها موضعٌ للغموض، فهذه أمةُ العرب في الجاهلية. وها هي ذي في صحبة الرسول عليه الصلاة والسلام، وهذه هي يـوم وفاته، وهذه هي في معمعةِ النضال بينها وبين نفسـها، وبينها وبين دولتي الفرس والروم، لقد تتبّع مؤلِّفُ السيرة قبائل العرب في مواطنها، فوصفها وصفاً دقيقاً، يحمل القارئ أن يستشفّ ما يعتلجُ في نفوسها من العواطف، ويرى البواعث من وراءِ الوقائع، ويكتنه الأسباب من وراء الحوادث. . .

لقد وصف سير الجيوش الإسلامية إلى بلاد فارس والشام، واستطاعَ بالمقارنة والمناقشة أن يرسم خططها، ويصفَ حركاتها، وتنقّلها في مواطن القتال، واحداً بعد الآخر، في وضوح وسهولة، لا يُمكن أن يدرك منهما القارئ أنه قد عانى شيئاً من المشقة في سبيل استجلاء الحقائق، وإماطة الغموض والاضطراب عنها.

وقد أفاض الأديب هيكل من خياله على الأشخاص، فأحيا صورهم حياةً يكاد القارئ يسمعُ تردّد أنفاسها، والحقّ أن سيرة (الصديق أبي بكر) فتحٌ في كتابة التاريخ الإسلامي، أضاف به المؤلف الجليل ثروةً قيّمة إلى المكتبة العربية».

هذا ما قاله الأستاذ (محمد فريد أبو حديد) وأُضيف إليه ما قاله الدكتـور (أحمد أمين) في مجال الموازنـة النقديـة بين كتـابي (الصديق أبو بكر) لهيكل و(عبقرية عمر) للعقاد حيث قال:

«لوّنَ هيكلُ كتابته بلونْ العلم، فهو يصفُ الشجرة جذورَها وساقَها وأغصانَها وزهرتها، وصبغَ العقادُ كتابه بصبغة الفنان، لا يرى من شجر الورد الجميلة إلا وردتها الجميلة، لذلك ذكر هيكل مراجعه، لأنّ هذا

عمل المؤرخ، ولم يُثْبتها العقاد لأنّه عمل الأديب، فهيكل يساير أبا بكر من أبويْه، وصباه وإسلامه، ويتتبع حياته خطوةً خطوةً، في بِعْثته، وأعماله في خلافته عملاً عملاً إلى مرضه ووفاته، والعقاد يرى في عمر أعمالاً بارزةً، يتخيّرها، ويركزُ عليها كلامه، ويطلقُ فيها قلمه، ويُحلّلها ويُجلّيها، ولا يتركها حتى يصفّي حسابه معها، فلا يهمّه تفاصيل فتوح عمر، ولكنْ يهمّه النظرة العامة في عمر، ولكلِّ شيخٍ طريقته، ولكلِّ طريقة ميزتها».

وأنا بعد أن نقلتُ ما قال الأديبان الكبيران، أعمدُ إلى لقطات قوية مما ذكر هيكل لأشير إليها، كي تدلَّ على منهجه الأسلوبيّ من قريب.

وأولُ ما خصّه هيكل بالحديث إيضاحُ الباعثِ على تأليف كتابه (الصديق) بعد كتابه (حياة محمد)، حيث قرّر أنّ الذي أغراهُ بالتفكير في هذا الأمر أنّ الإمبراطورية الإسلامية كانت أثراً لتعاليم النبيّ العربي ﷺ وسنته، وأنّه وقد درس حياته ﷺ، ورأى أنَّ نتائج هذه الدراسة جديرةٌ بأن تهدي الإنسانية طريقها إلى الحضارة التي تنشدها، فإنّ في دراسة هذه الإمبراطورية وأطوارها ما يزيدُنا قدراً للتأسّي بالرسول ﷺ وتعاليمه.

وما يُيسّرُ لنا حظّاً جديداً من العلم بهذه الحياة الباهرة الجلال، يزيد العلماء اقتناعاً بما دعا إليه من إمعان البحث فيما تنطوي عليه من حقائق نفسيّة، وأخرى روحية، كما أنّ معرفة الماضي هي وحدها التي تُطوِّع لنا تصوير المستقبل، وتوجيه الجهود نحوه إلى الغاية الجديرة بالإنسانية، ومعرفةُ الماضي هي الوسيلة لتشخيص الحاضر، فالماضي والحاضر والمستقبل وحدة لا سبيل إلى انفصامها».

وقد يلاحظ القارئ أنّ عبارة (الإمبراطورية الإسلامية) قد ذُكرت

في هذا النّص، وهي عبارةٌ تردّدت كثيراً فيما كتب هيكل من الدراسات الإسلامية جميعها وبها سمّى أحد كتبه، وقد اعترض عليها الأستاذ الشهير سيد قطب حين قال[1]: «إنها أبعد ما تكون عن روح الإسلام الحقيقية، مهما فرقنا بيْن مدلول الإمبراطورية الإسلامية، ومدلول الإمبراطورية المعروف، ولعل المظهر الشكلي ـ في رأي الأستاذ الشهير ـ وهو تكوينُ العالم الإسلامي من عدة أقاليم متباينة الأجناس والثقافات، يرجعُ أمر الحكم فيها إلى مركز واحد هو مظهرُ الإمبراطورية، ولكنّه مجرد مظهر، والمعوّل عليه هو طبيعة نظر هذا المركز إلى الأقاليم، وكلّ تتبع لروح الإسلام وطريقته في الحكم يجزم بأنّها أبعدُ ما تكون عن الإمبراطوريات المعروفة، فالإسلامُ يسوّي بين المسلمين في جميع أجزاء العالم، وينكر العصبيات الجنسية والإقليمية».

هذا ما عناهُ الأستاذ قطب في اعتراضه على عبارة (الإمبراطورية الإسلامية)التي تكررت كثيراًفي بحوث الدكتور هيكل، وموضعُ الاعتراض أنَّ الحكم الإسلامي في البلاد المختلفة يدعو إلى المساواة، ولا كذلك ما عُرف عن الإمبراطوريات الغربية.

وأنا أقول في دفع هذا الاعتراض: إنّ الدكتور هيكل قد قرَّر في كلِّ ما كتب أنَّ الإمبراطورية الإسلامية في عهد الخلافة الراشدة وفي بعض العهود التالية كانت تلتزمُ بالمساواة، وتراها الطريقَ الواضح لسعادة البشرية، فهي إمبراطوريةٌ متميّزةٌ بمبادئها المُخالفة لإمبراطوريات فارس والروم في القديم، وإمبراطوريات أوروبة في القرون الماضية الغربية، قبل أن تتحرّر الشعوب من نير الاستعباد!.

---

(١) العدالة الاجتماعية في الإسلام، ص٩١.

وهيكل يفهم ذلك جداً، بل يعدّ انتصار الفتح الإسلامي، وامتداده إلى حيثُ رفرف علمه على الأمم البعيدة كان باعثهُ الأول هو الدعوة إلى المساواة، ويزيدُ الدكتور هيكل فيرى أنَّ المساواة هذه هي التي دفعت أبا بكر لفتح بلاد فارس والروم، واثقاً أن الدعوة إليها هي أكبرُ سلاحٍ يجلبُ الانتصار، يقول الدكتور هيكل[1]:

«إنّ رواية الحوادث في عهد أبي بكر تشهدُ له ببعد النظر، وحُسنِ الرأي، فهو حين فكّر في غزو الفرس وفي غزو الروم، لأوّل ما اطمأنّ إلى موقف المسلمين من حروب الردة في بلاد العرب، قد رأى في المساواة التي جاء بها الإسلام قوةً جديدة لا تستطيع فارس ولا تستطيع بيزنطة أن تواجهها، فهذا المبدأ جديرٌ بأن تهوى إليه نفوسُ الناس جميعاً في هاتينْ الإمبراطوريتين، اللتين قامتا على حكم الفرد، وعلى نظام الطوائف، وعلى التفاوت بين الناس، ليكنْ لكلٍّ من الإمبراطوريتين ما تشاء من عُدّة وعدد، فإنّ فكرة المساواة والعدل أقوى من كلّ قوة، والحكمُ القائم على أساس هذه الفكرة جديرٌ بأن يكسب الناس إليه، ما كان الإنصاف أساسه.

لذلك لم يصدَّ أبا بكر عن غزو العراق وغزو الشام ما كان من اختلاف طائفة من كبار الصحابة معه في الرأي، بل أمر بهذا الغزو مطمئناً إلى أنَّ الله مُعينه وناصره، ولذلك نصح إلى من بعثهم على رأس هذا الغزو أن يتمسّكوا بالمساواة والإنصاف والعدل لا يحيدون عنها قيد أنملة».

وإذن فلفظُ (الإمبراطورية) لا اعتراض عليه بالمفهوم الإسلامي، الذي عرَّفهُ هيكل، وأشادَ به في فخرٍ واعتدادٍ. . . وليست المسألة مسألة

---

(١) الصديق أبو بكر، ص١٣.

ألفاظ، ولكنّها مسألة مضمون.

وإن سرّ إبداع الدكتور هيكل في مؤلفاته الإسلامية أنّه يستشفّ من الأسباب الجوهرية للأحداث ما غاب عنْ سواه، وقد يجدُ المعارض فيما انتهى إليه من أسباب ما يناقش به، ولكنّه رغم هذه المعارضة يقدّم أسباباً لها وجاهاتها، بل لها ما يجعلُ القلوب المؤمنة تتقبّلها بابتهاجٍ، وما يفسحُ لها في الصدور مكاناً منشرحاً.

لقد تحدّث المتحدثون عن الوقفة الباسلة الفذّة التي وقفها أبو بكر حين قرّر في إصرارٍ حرب المرتدين، على حين أشفق الكثيرون من مغبّة هذه الحرب، حيثُ تألّبت الجزيرةُ كلُّها على الإسلام باستثناء ما بين المدينة والطائف، فكيف يثبتُ المسلمون أمام هذه الجمهرة الكاسحة، وعمر بن الخطاب نفسه خشي مغبةَ هذه الحرب غير المتكافئة، فعارضَ أبا بكر في اتجاهه، وكان المظنون أن يكونَ عمرُ الشجاعُ المتحمّس أوّل المؤيدين إن لم يكنْ صاحبَ الرأي قبلَ أبي بكر.

هذا الموقف الصارم الحازم من إنسانٍ رحيمٍ هادئ السريرة، وجد التعليلَ المريحَ لدى الدكتور هيكل، حين أكّد أنّ اقتداء أبي بكر بالرسول ﷺ، وطول مصاحبته إياه في أشد مواقف الحرج، كان الدافع الأوّلَ للتأسّي به في هذه العاصفة الهوجاء، فقد تعرّض النبي ﷺ في حياته لمثل هذه المواقف الضائقة، فما ازداد إلاّ صلابةً وثباتاً.

يقول الدكتور محمد حسين هيكل[1] في جواب السؤال الحائر، كيف استطاع أبو بكر أن يواجه الصعاب التي افتتح بها عهده، وأن يثبت

(١) الصديق أبو بكر، ص١٧.

أمامها ويتغلب عليها؟ يقول الدكتور هيكل: «إنّ عظمة الصديق في خلافته تتصل بعظمته في صحبة الرسول ﷺ أوثق اتصال، فهو قد أُشرب أثناء هذه الصحبة روح الدين الذي جاء به محمد ﷺ، ومما أُشربه وأدركه بإلهامه أنَّ الإيمان قوة لا يغلبها غالب، حين يتنزّه المؤمن عن كلِّ غرضٍ، إلا ابتغاء الحق لوجه الحقِّ وحده، هذا الإيمان الصادق الذي دفعه ليخالف أصحابه في أمر المرتدين، ويصرَّ على قتالهم، وإن خرج وحده، وماله لا يفعلُ، وقد رأى النبيَّ ﷺ يقفُ وحيداً يدعو إلى الله بمكة، فيخالفه أهل مكة، ثم يُغرونه بالمال والملك والعظمة، ثم يُحاربونه يبتغون بذلك أن يصدّوه عن الحق الذي يدعو إليه، فلا يفتر أن يقول: «والله لو وضعوا الشمسَ في يميني، والقمرَ في شمالي، على أن أتركَ هذا الأمرَ ما تركتهُ حتى يظهره الله أو أهلِكَ دونه»! وما له لا يفعل، وقد رأى النبيَ ﷺ في أعقاب غزوة أُحد، وبعد أن انتصرتْ قريشٌ على جيوش المسلمين فيها، يرتدّ لغده فيمن بقي من المسلمين ممن شهد أُحداً، ويتعقب قريشاً. . . وينزل حمراءَ الأسد، ويقم بها ثلاثة أيام. يُوقد النارَ طول ليله، حتى تزعزعت همةُ قريش، وانصرفت إلى مكة، وقد استردّ المسلمون من مكانتهم ما زعزعته أُحد».

والمؤلّف حين يقرّر ذلك لا يغفل عن مواقف الرحمة واللين في حياة أبي بكر، فهو يؤرّخها بإبداع، ويحسنُ تعليلها أجملَ التعليل، ومن ذلك موقفه الشهير يوم أسرى بدر، إذ كان شفيعَ هؤلاء الأسرى لدى رسول الله ﷺ بعد أن أرهبهم عمر، وتوعّدهم بالمكروه، فأخذ يدفع حجج عمر باللين والهوادة، إذ يرى بعين بصيرته أنَّ سلطان الرحمة له الغلبة آخر الأمر، وأنَّ الناس سينزلون على حكم صاحبها وعلى عقيدته ما رأوْها رحمةً إنسانية ساميةً، مبرأة من العنف، منزهةً عن الهوى،

لا تحركها في النفس إلا القوة والقدرة.

يقول الدكتور هيكل فيما مهّد به للحديث عن موقف أبي بكر من أسرى بدر: «أَلِفَ الناسُ في كثير من المؤمنين بعقيدة لا يُمارون فيها ولا يُداجون أن يبلغَ بهم التعصّبُ لعقيدتهم مبلغاً يجعلهم أشداء لا يهنون، غلاظاً لا يلينون، بل إنَّ منهم لكثيرين لا يُطيقون النظر إلى وجوه من يُخالفهم في هذه العقيدة، وهم يـروْن أنَّ الإيمانَ الحقَّ يقتضيهم هـذا التعصب، وهذه الشدة، وتلك الغلظة، أما الصديق فكان على جلال إيمانه، وعظيم تعصّبه لهذا الإيمان، وشدّته فيه شدةً لا تهون ولا تتردد، بعيداً عن الغلظة، قريباً إلى اللين، عفوّاً عند المقدرة، مُحسناً متى تمَّ لإيمانه النصر، بذلك جمع في قلبه بين مبدأين من أسمى المبادئ الإنسانية، حبّ الحق والرحمة، ففي سبيل الحق كان يستهين بكل شيء، وبالحياة قبل كل شيء، فإذا علتْ كلمة الحق، غلب فيه جانب الرحمة، وانقلب مؤمناً بها، وإيمانه من قبل بالحق، ضعيفاً حتى لتذرف عينه الدمع، ترسله مدراراً»[1].

بمثل هذه الآراء العميقة تفرّدَ جماعة من الباحثين في تاريخ الصدر الأول من بناة الإسلام، بإبداعٍ لم يلحقهم فيه من أخذوا يتعقّبون بعضَ الهفوات التي لا يخلو من الوقوع فيها بشر، ليرسلوا الصياح المزعج، والعواء المتشنج على من كتبوا التاريخ بلسان عربي مبين.

وكما بدأ الكتاب بمقدمةٍ ذاتِ روعةٍ بالغةٍ، انتهى بخاتمة لا تقلُّ عنها روعةً وإبداعاً، إذ تحدث عن الدهشة البالغة لانتصار القلة القليلة من

---

(١) الصديق أبو بكر، ص٤٥.

جيوش المسلمين على الكثرة الكاسحة من فيالق الفرس والروم معاً! وعلّل هذا الانتصار بما في الدعوة الإسلامية من حيوية دافقة، تدفعُ إلى إخراج البشرية من الظلمات إلى النور.

فقد استرعى الإسلام سمع الناس فدانوا به، لأنّه يصوّر مثل الإنسانية الأعلى، ويسمو بالكرامة والحرية إلى أرفع الذُّرى.

ثم انتقل إلى الإجابة عن سؤالٍ آخر لا يقلُّ أهميةً عن سابقه، وهو لماذا اصطفى نبيه ﷺ من شبه الجزيرة العربية؟

ورجع في الجواب إلى المشهود الملموس في تاريخ هذه الحقبة في العالم جميعه، وإذا كان المؤلف قد كرر في بعض الصفحات ما سبق أنْ دوّنه من قبل، فإنّ المواقف المتشابهة كانتْ داعيةً هذا التكرار، وليست كتب التاريخ معادلات رياضية تقف عند الأرقام الصّماء، بل هي ميدانٌ لفيضٍ دافق من الشعور الإنساني، يجيش في صدر المؤرخ حين يشهدُ لوامع العظمة الإنسانية في السلوك الحيّ، والتطبيق النزيه، وفي ختام حديثه أشارَ إلى تقدم الضمير الإنساني عبر العصور، وإذا كان من الشاهد أنّه يجمدُ أحياناً حتى ليخاله الرائي قد ارتدّ، فإنّه لا بدّ بالغ غايته الشريفة من النضج، وإن اقتضى ذلك أمداً طويلاً، ومن بوادر هذا التقدم الإنساني النبيل ما سجّله المؤلّف عن الكاتب الإنكليزي الأشهر (برنارد شو) حين تحدّث في مجلة (نور الإسلام) عدد ٤٠، ص٥٧٢٠، سنة ١٣٥٢هـ فقال[١]:

«لقد كان دينُ محمد موضع تقديري السامي دائماً، لما ينطوي عليه

---

(١) الصديق أبو بكر، ص٣٧٤.

من حيويّة مدهشة، لأنّه على ما يلوح لي هو الدين الوحيد الذي له ملكة الهضم لأطوار الحياة المختلفة، والذي يستطيعُ لذلك أن يجذب إليه كلَّ جيل من الناس.

ولقد عمد رجالُ (الإكليروس) في العصور الوسطى إلى تصوير الإسلام في أحلك الألوان، وذلك بسبب الجهل والتعصب الذميم، والواقعِ أنّهم كانوا يسرفون في كراهية محمد وكراهية دينه، ويعدّونه خصماً للمسيح، أما أنا فأرى واجباً أن يُدعى محمد منقذَ الإنسانية، وأعتقدُ أنّ رجلاً مثله إذا تولى زعامة العالم نجحَ في حلِّ مشكلاته» إلى أن قال: «ولقد دان كثيرون من قومي ومن أهل أوروبة بدين محمد في الوقت الحاضر، وهذا يجعلُنا قادرين على أن نقولَ: إن تحوّل أوروبة إلى الإسلام قد بدأ».

وقد عقب الدكتور على ذلك بقوله[1]: إن تحقيق هذا الأمل رهنٌ بأن يبلغ الضمير الإنسانيُّ نضجَه، فهل كتب القدر الرحيم في لوحه أن تتمخّض الآلام والضحايا التي احتملها العالم في هذا القرن المتمّ للعشرين عن هذا النضج؟ لا ريبَ عندي في أنَّ الإنسانية ستخطو في هذا السبيل خطوةً إن لم نستطع اليومَ أن نُقدّر مداها، فمن حقنا أن نغتبط بها، وأن نتطلّع بعدها إلى خطواتٍ أفسح!.

* * *

---

(١) الصديق أبو بكر، ص٣٧٥.

الفاروق عمر

يعتبر كتابُ (الفاروق عمر) بجزئيه الكبيرين من أحفلِ ما كتبَ الدكتور هيكل في المضمار التاريخي، لأنّ الفترة التي حكمَ فيها الفاروق كانتْ من أيمن الفترات على الإسلام، فقد انتقل الصّديق إلى جوار ربه بعد حروب الردّة، ومقدمات القتالِ في فارس والروم، فلمّا تولّى الفاروقُ مِنْ بعده، كان ميدانُ الفتوح فسيحاً واسعاً، يحتاج إلى جهاد خارق، تحقّق برعايته الساهرة، فامتدّت الفتوح إلى نهاية بلاد الشام وفارس ومصر، وبذلك بلغت حدود هذه الفتوح ـ كما يقولُ الدكتور هيكل ـ الصين من الشرق، وإفريقية من الغرب، وبحر قزوين من الشمال، والسودان من الجنوب!

كلٌّ ذلك تحقّق في عهد الفاروق، وتطلّب تاريخاً دقيقاً لا في وصف المعارك وحدها، بل في الإدارة والسياسة والاقتصاد، وكلّ ما يشمل أمورَ الدولة الممتدة في أكناف قارتين واسعتي الأطراف، وهذا ما قام به المؤلف النشيط حين كتب مؤلّفيْن هامّين تحدّثَ في أوّلهما عن عمر في جاهليته وإسلامه، وعن أثره في صحبة رسول الله ﷺ ثم في عهد أبي بكر، وذلك كله تمهيدٌ لأعماله حين تولّى الخلافة، فجهز الجيوش، وصمّم على إتمام ما بُدئ من الفتوح، وهنا امتدت فصولُ هذا الجزء لتشملَ الحديث عن فتح العراق، ومعارك القادسية، والمدائن، وعن فتح دمشق،

ومعارك الأردن، وسورية، وبيت المقدس، والتمهيد لفتح مصر.

وجاء الكتاب الثاني ليتحدّثَ عن الخطوات الأخيرة في انتهاء عهد الأكاسرة، ثم بتفصيل دقيقٍ شافٍ عن فتح مصر، هذا غير الحديث عن سياسة عمر في الإدارة، وما امتازَ به من قدرةٍ فائقة في فهم النص القرآني، وتطبيقه على ما جدَّ من أمور الحياة اجتهاداً واستنباطاً، حتى ليجوزَ أن يُكتبَ في عمر الفقيـه كتاباً خاصاً يُعادِلُ ما كتب عن الأئمة أبي حنيفـة، ومالك، والشافعي، وابن حنبل، إذ كان اجتهادُه مع اجتهاد الإمام عليّ فاتحة هذه النهضة التشريعية في الإسلام، وقد سجّل ذلك كلّه بأسلوبٍ مشرقٍ لم يعهده القارئون في صحف التاريخ التي تناولت هذه الحقبـة السعيدة حقاً.

فالكتبُ القديمة لها سنتها المعهودة في الرواية، وحشد الأقوال، والكتب الحديثة قبل هذا الكتاب النادر حقاً لم تحظَ بهذه النظرات القوية الهادئة في التحليل والاستنباط، ثم بهذا الأسلوب الذي يُعدّ من أجمل أساليب البيان التاريخي الممتاز في ألفاظه وصوره ومعانيه، حتى ليكاد تاريخ هذه الفتوح المجيدة أن يكون قصّة شائقة، قصة واقعية، ترجعُ إلى الحقائق الأكيدة لا إلى الخيال المنمّق.

يقول الدكتور شوقي ضيف متحدثاً عن هذا الجهد الكبير(١): «وإنّنا لنعجبُ الآن كيف استطاع عمرُ أن يـؤلّف هذه الدولـة العظيمة، ولكن لا نعجبُ، فإنّ أسباب العجب كلّها يزيلها من نفسك الدكتور هيكل باشا بما يعرضه عليك من درسٍ وبحثٍ، يُفسران لك أروعَ تفسيرٍ هذه الحقبة في

---

(١) مجلة الثقافة ـ العدد ٣٣٦، ٥/ ٥/ ١٩٤٥م.

تاريخ الإنسانية، وإنّه ليستهدف أثناء درسه وبحثه إلى جمع كل مايستطيعهُ من حقائق تاريخيـة، حتى ليهولك الموقـف فتظنّ أنّه قد حشـد لك كلَّ الوثائق والمستندات، فليس هناك من سببٍ ممكنٍ لتحطيم الدولة الفارسية في موطنها إلا سجّله، وليس هناك من سبب في تحطيم الدولة الرومية في بعض جوانبها في مصر والشام إلا وقد صوّره، وإنّ البحث ليتّسع عليه فيُخرج في الفاروق مؤلفاً أوّل، ثم يتبعهُ بمؤلَّفٍ ثان يستتم به تصوير هذه القصة الطريفة، قصة حياة الفاروق، وإنّها لقصة دين وأمة».

وإذا كنا نعرف أن بعض الكاتبين قد تعرّض بالتفنيد لبعض المسائل التاريخية التي انتهى فيها هيكلُ إلى رأي لا يرتضيه، فذلك أمرٌ طبيعي منتظر، ولكنَّ الذي لا ينتظر إطلاقاً أن يتعالى الناقدُ على المنقود، وأن يظنَّ أنّ الحكم حكمه عند الاختلاف، ولا أدري لماذا لم يسـألْ نفسـه صادقـاً هل في مكنته أو في مكنة عشرة من أمثاله إذا اجتمعوا لتأليـف موسوعةٍ عن هذه الحقبة الممتدة من ظهور الإسلام إلى استشهاد عثمان أنْ يبلغوا قليلاً مما بلغ هذا المؤرّخ العملاق!

إنّ القارئ الآن لم يَعُدْ ساذجاً يتقبّلُ النقدَ دون نقاشٍ، ولكنّه يميّز بين الرديء والجيّد، وله حُكْمهُ الصائب على ما يقرأ، ولا بدّ أن يدرك أنَّ هؤلاء المتعالين دونَ سببٍ للاستعلاء قد وضعوا أنفسهم في ميزان الحكم الأدبي موضعاً يدعو إلى الإشفاق!.

لقد تحدث الدكتور في مقدمات كتبه المباركة عن الأسباب التي دفعتـه لتأليف كـلّ كتاب، ثم أوجزها دقيقـة شفافةً في مقدمـة كتابه عن (الفاروق) وقد وقفتُ عند حديثه عن هذا الكتاب وقفةُ الطّروب المتأثر بأسلوب من الأدب جاء في روعته دقيقاً محكماً، لأنّ الصورة الأدبية التي

اختارها تنمُّ عن الواقع الحقيقي الذي أراد تصويره، فهو يقول في روعة وإبداع[1]:

«وهذا الكتاب عن عمر حلقة ثالثة من هذه السلسلة، لكنّها تختلفُ عن الحلقتين الأُوليين، كما تختلف كل واحدةٍ من هاتين الحلقتين اختلافاً ظاهراً، هذا مع توالدُ الحلقات الثلاث، كل واحدة عن سابقتها، كما تخرجُ الجذور من البذور، ثم ينبثق الجذع باسقاً من الجذور، ثم تتفرّع الأغصانُ من الجذع، قـد تذبل الأغصان، ويبقى الجذع مع ذلك قويَّ الحيوية، بل قد يجفّ الجذعُ ثم تبقى الجذورُ سليمةً قادرةً على أن تنشئ جذوعاً أقوى، وفروعاً أكثر نضارةً، فإذا كانت الإمبراطورية الإسلامية قد انحلّت، فلا يزالُ الإسلامُ الذي أنشأها قديراً على أن ينشئ وحدةً إنسانية عظيمةً تلائم روح العصر ونظامه».

والذي أوقفني موقفَ الطروب الفرِح من هذه الصورة الرائعة هو ما تبعثه من الأمل المشرق الموعود، في رجعة عهدٍ زاهر للإسلام، إذ يعمنا اليأسُ المطبق حين نرى أحوالَ العالم الإسلاميِّ لا تُبشّر بما نرجوه من ارتقاء وصعود، فإذا عرفنا أنَّ الأصل موجودٌ، وهو البذرُ الذي غرسه القرآن الكريم، ونمّاه الرسول ﷺ وصحابته بالجهاد الحافل المديد، فإنّ ذبول الأغصان اليوم، وجفاف الجذع هذا الجفاف المؤلم المُؤسي، مما لا يجلب دواعي اليأس ما دام البذر باقياً صحيحاً، يستطيعُ أن يبعثَ الحياة من جديد، والمسلمُ في حاجة إلى مثل هذه الآمال يهتف بها كاتبٌ قويُّ الإيمان، قويُّ الإدراك، قوي التعبير والتصوير.

---

(١) الفاروق عمر: ١/ ١٢.

وهذه القوة البيانية تتخلل أجزاءَ الكتاب في موضوعاته المختلفة، ولا أعني بذلك قوة الصورة وحدها، بل قوة الفكرة الموجّهة الموقظة للنيام من مضاجعهم المظلمة! لترى العيونُ ما حولها من ضباب متراكم، فتعمل على إزالته بأقوى ما تستطيعُ، وإذا كان الإسلامُ قد هدى العالم بنوره حين أخرجه من الظلمات إلى الضياء المشرق، فهو قديرٌ اليوم بأن ينقذ أهله من السّبات بما يعلمون من مبادئه التي قضت على طغيان الروم والفرس من قبل، فهي جديرةٌ أن تقضي على أعداء اليوم من المتربصين الحاقدين.

يقولُ الدكتور هيكل متحدِّثاً عن أسباب النصر بالأمس في إيجاز من اللفظ يحمل أقوى أساليب الإسهاب في المضمون[1]:

«وإنّما قَدِرَ العربُ بعد إسلامهم على الفرس والروم، لأنَّ الإسلامَ أنشأهم نشأةً جديدةً، وبثّ فيهم روحاً أحالتهم خلقاً جديداً، ذلك أنّه اقتحم على نفوسهم مناطق عقائدها وعباداتها، واتّصل بوجدانهم في صميمه، فألقى فيها بذرة التوحيد، صافية الجوهر، نقيّة من كل شائبة، بسيطةً كذلك كلَّ البساطة.

ثم إنّه فرض عليهم من العبادات ما زادهم بالتوحيد إيماناً، وما ربط بين قلوبهم بأوثق رباطٍ، فرض عليهم الصلاة والزكاة والصيام والحج، فأمّا ما وراء ذلك من سالفِ شعائرهم فقضى عليه إلى غير رجعة... أخذ هذا الإيمانُ بمجامع القلوب، وانتقلَ أثره من الفرد إلى الجماعة» هذا ما فعله الإسلام بالأمسِ، بهدايته التي لا تزالُ تُتْلى وتُحفظ من كتاب الله، فهو جديرٌ اليومَ أن يعيدَ الكرّة من جديد.

---

(١) الفاروق: ١/ ٣.

لقد جلا هيكلُ شمائلَ الفاروق بما يُعدُّ جديداً جديداً، لا لأنه اخترعه أو نقله عن مخطوط لم يقرأه أحدٌ من قبله، بل لأنه عرضه في صُورٍ مؤثّرة نفّاذة، تأخذُ بمجامع القلوب، فكلنا ـ مثلاً ـ يعرفُ رحمة الفاروق بالرعية، يعرف حمله الطعام على ظهره في غسق الليل لامرأة فقيرة تلدُ دون معين، يعرفُ أنّه يحمل الماءَ لامرأةٍ من الأنصار سمعها تطلب السّقيا ليلاً دون أن تجد المعين، نعرف أنه يحمل الدواءَ لمريضٍ وجدهُ في قارعة الطريق يتألّم لجرح أصابه، نعرف ذلك كله جميعاً، ولكني وجدت أبلغ منه وأوقع منه في نفسي في بعض ما ذكره هيكل من مواقفه الرحيمة التي لم أكن أعلمُ عنها شيئاً من قبل، ومن ذلك، أنَّ نفراً من المجاهدين تعاظمهم الفزع يوم الجسر في معارك فارس، إذ فزعوا من الأفيال التي لم يشهدوها من قبلُ، ثم سقط الجسر، فحصد مئات الأرواح، وتشاءم بعضُ القوم، وفرّ منهم من فر، ولم يجرؤوا على الذهاب إلى المدينة استحياء من الناس، وخيفةً من بطش عمر، ولكن الفاروق الرحيم أدركَ الأمرَ على حقيقته، وعلم أنّ الناس هم الناس شجاعةً وخوراً، وإقداماً وإحجاماً، فعذر الفارين، ودعاهم إلى المدينة مشفقاً راحماً، يقول الدكتور هيكل[1]:

«كان أول من قدم المدينة من المسلمين الذين شهدوا غزوة الجسر عبد الله بن زيد، وقد رآه عمر بن الخطاب حين دخل المسجد فناداه، ما عندك يا عبد الله؟ وسار عبد الله، وألقى الخبر عليه، فلم يُبْدِ جزعاً، بل تلقاه ساكناً، ودخل بعض الذين فروا من الغزاة إلى المدينة منكّسي رؤوسهم خزياً من عار الهزيمة والفرار، أما سائرهم فنزلوا البوادي حياءً أن يلقوا أهلهم، فيعيّروهم بفرارهم وجبنهم، ورأى عمر حالهم فرقّ لهم

(١) الفاروق: ١/١١٦.

ورحمهم، وجعل يدفعُ عنهم برم الناس بهم، وسخطهم عليهم، فكان يقولُ: «اللهم كلّ مسلم في حلٍّ مني، أنا فئة كلّ مسلم، من لقى العدوّ ففظع بشيء من أمره، فأنا له فئة يا معشر المسلمين، لا تجزعوا، أنا فئتكم، وإنما انحزتم إليّ، يرحمُ الله أبا عبيد، لو كان انحاز إليّ لكنتُ له فئةً، وكان معاذُ القارئ أخو بني النجار ممن فرّوا من الجسر إلى المدينة، وكان يبكي كلّما قرأ قول الله تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٦]. فكان عمر يقول له: لا تبكِ يا معاذ، أنا فئتك، وإنّما انحزت إلي».

هذه الرحمة الحانية من الفاروق تدلُّ على إنسانية رفيعة تتغلغلُ في أعماقه، فالذين يعرفون صرامته وقوته، كانوا يظنون أنّه سيؤنب هؤلاء الذين أذهلهم الفزع، ففرّوا مذعورين، ولكنّه أدرك أنَّ الضعف البشري يعتري الناس، ولا بدّ أن يُعذروا فيما لم يستطيعوه من مواصلة القتال، فجعلَ نفسه فئةً للفارين، ليندرجوا في قول الله: ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ [الأنفال: ١٦].

ذكر الدكتور هيكل هذا الموقف ثم عقّب عليه بقوله الرائع[١]: «يذكّرنا موقفُ عمر من هؤلاء الذين فروا مرتدين إلى المدينة بعد هزيمتهم بالجسر، بموقف رسول الله ﷺ من الجند المسلمين، الذي عادوا من غزوة مؤتة، بعد أن قُتِلَ قوّادهم فيها، فداور خالد بن الوليد بمن بقي منهم، وارتد بهم إلى المدينة غير منتصر على عدوّه، فجعل أهلُ المدينة يحثون على هذا الجيش التراب، ويقولون: يا فرّار، فررتم من سبيل الله، فيقولُ

---

(١) الفاروق عمر: ١/ ١١٦.

رسول الله ﷺ: «ليسوا الفرّار، ولكنّهم الكرّار إن شاء الله».

ولم يكن ارتداد المسلمين بمؤتة كهزيمتهم بالجسر فظاعةً وسوءَ أثرٍ، ولم يكنْ عمر كرسول الله ﷺ رحمةً ورأفةً، ومع ذلك كان رؤوفاً بمن نكبوا يوم الجسر، بل كان فئتهم، وقف في جانبهم ودافع عنهم، وأبدى من العطف عليهم ما سكّن من روعهم، وخفف من عار هزيمتهم، ولا عجب وقد صارت إليه إمارة المؤمنين أن يكون رحيماً، فيكون أبرّهم بهم، وأشدّهم عطفاً على الضعفاء منهم، وإنْ ظلَّ شديد البأسَ على الأقوياء، شديدَ البطش بالظالمين».

وإذا كان هيكلُ يقصدُ فيما يقصدُ من كتابة تاريخ الصدر الأول في الإسلام إلهابَ العزائم الخامدة، وإيقادَ العواطف الهامدة، فإنّه يحرصُ كلَّ الحرص على تربية الجيل المعاصر تربيةً تماثِلُ تربية السلف الصالح، ويتخذ من الوقائع التاريخية ما يبعثُ هذا الحرصَ في النفوس، ضارباً الأمثلة الناصعة كبرهان على صحة ما يريده، وكان انتصار المسلمين على الفرس أحدَ الأمثلة الواضحة، التي شاء أن يقدّمها دليلاً على ما يريدُ من إحياء المثل الأعلى في النفوس، ليقود المعاصرين إلى النصر، كما قاد الغابرين من قبلُ في معركة الفرس.

وقد اتضح أمامه المثل الناهض في رجلين من الأبطال حاربا من قبلُ في صفوف الشرك، فاندحرا اندحاراً مشيناً، مع قوتهما الباسلة وشجاعتهما المعترف بهما، ثم اهتديا بنور الإسلام، وحاربا حميّةً عن دين الله، فأحرزا الانتصار، هذان هما (طليحة بن خويلد الأسدي) و(عمرو بن معدي كرب الزبيدي) وهذا هو حديثهما يرويه الكاتب الكبير فيقول[1]:

---

(١) الفاروق عمر: ١/ ١٨٦.

«غيّر المسلمون ما بأنفسهم حين آمنوا بالله ورسوله ﷺ، فاجتمعوا حول مَثَل أعلى صوّره الله في رسالة نبيّه ﷺ، فأصبح المسلمون بفضل هذا الاجتماع أمةً واحدةً، وصار كلُّ واحدٍ منهم في هذه الأمة كالعضو في الجسد، لا قوة له بذاته، بل بقوة الجسد كلّه، بذلك صار كلُّ رجلٍ من أبناء الأمة وكل امرأة من نسائها قوةً يجذبها المثل الأعلى إليه، ويدفعها قوية للمغامرة في سبيله، ويسمو بها إلى حيث لا تعرف الضعف، ولا التراجع ولا الهزيمة، بل تؤثر الموتَ الكريم على الموقف الشائن، أرأيت إلى (طليحة بن خويلد الأسدي) كيف كان ضعيفاً أمام خالد بن الوليد في حروب الردّة، وكيف كان قوياً بالغَ القوة على الفرس في القادسية، وهل رأيت كيف انهزم (عمرو بن معدي كرب) و(الأشعث بن قيس) في ردّتهما أمام جيش المسلمين، وكيف أبْليا في القادسية بلاءً ذكره لهما الذاكرون.

ذلك أنّ طليحة كان يوم تنبأ قويَّ الشكيمة، ضعيفَ الإيمان، فلم تغن قوة شكيمته عن ضعف إيمانه، وكذلك كان عمرو بن معدي كرب الزبيدي، والأشعث بن قيس، وسائر الذين ارتدوا وحاربوا المسلمين، فلما عادوا إلى الإسلام، وآمنوا به، وصاروا فلذةً من الأمة التي اعتزّت بإيمانها، زادهم الإيمانُ قوة على قوتهم، فكان لهم من الفعال في القادسية ما رأيت، وكان لهم بعد القادسية من فعال البطولة ما خلّده التاريخ».

وحديث هيكل عن انهزام هرقل واندحاره في معارك الشام أمامَ الجنود المسلمين بعد انتصاره الساحق على الفرس يدلُّ أكبر دلالة على ما يعتقده الكاتب الكبير في أثر العقيدة الصحيحة وقدرتها على النصر.

كما يدل على أثر الانتماء الوصولي الذليل دون عقيدة دافعة، وأثره

في الهزيمة لدى جيوش الروم، وقد كان هرقلُ الذي انتصر على أكبر قائد فارسيّ، مهزوماً من الداخل أمام شعوره ببأس المسلمين، لذلك لم يقُدِ المعركة بنفسه كما قادها في معارك الفرس، وأسلم القيادة لغيره، ثم جعل يترقّب الأنباء في حذرٍ، وقد حلّ ما توقع، فقد مُني بهزيمة نكراء جعلته ينظر إلى سورية في حسرةٍ، ويقول حين عزم على الرحيل: «سلامٌ عليك يا سورية سلاماً لا لقاءَ بعده».

تلك صفحات سجّلها الكتابُ الرائع الذي خطّه الدكتور هيكل عن أمجاد الإسلام بقيادة الفاروق، ولولا طولهُ النسبي لاقترحت أن يكون كتاب قراءة في المدارس الثانوية، ليُنشئ من أبناء الإسلام جيلاً يؤمن بقوة العقيدة، وتحقيق الانتصار، وبما تبعثه من شعور متقد، وإذا لم يكن الكتاب لطوله موضع القراءة الأسبوعية في الحصص المدرسية أفلا يُختار من صفحاته ما يدل على بقيته، وما يؤجج هذا الشعور الذي ننتظر أن يلتهب بعد خمود، ولستُ أضائل مما كتب هيكل في كتابيه (حياة محمد) و(الصديق أبو بكر) ولكنّ كتاباً يتحدث عن هزيمة أكبر إمبراطوريتين هائلتين أمام جيوش العقيدة ورسل التوحيد لجديرٌ بأن يكونَ موضعَ المطالعة والتدريس.

* * *

مذكرات في السياسة المصرية

كتب الدكتور هيكل مذكراته السياسية حافلةً بما رأى وسمعَ وباشر، لأنه كان رئيسَ حزبٍ سياسي، ورئيسَ تحرير جريدة تنطقُ بلسان هذا الحزب، ومن قدره أن يكون هذا الحزبُ ممثلاً للأقلية لا للأكثرية، فهو مضطرٌ لمجابهة تيارات قوية، تدفعهُ دفعاً إلى النقاش المتواصل، وإلى تبرير ما قد يأتي به حزبهُ من أعمالٍ لا تحوزُ قبولَ الأكثرية، وهو يعرفُ هذا جيداً، لذلك يلمسُ قارئه في هذه المذكرات تبريرات كثيرة لأخطاء صريحة، كما يلمسُ نقداً لزعماء قد يكونون ذوي آراء صائبة في اتجاهاتهم التي يعارضها حزب الأقلية، ومهما يكن من شيء لقد كان الرجل صادقاً مع نفسه حين نزل ميدان السياسة، إذ ارتأى وجهة يعتقدُ أنّها الصواب، كما كان صادقاً مع نفسه حين كتبَ هذه المذكرات في شيءٍ من الإسهاب.

وقد أحسّ قبل أن يبدأ الكتابة أنَّ قارئه ربما يظنُّ أنَّ المسألةَ مسألةُ دفاع عن اتجاه، لا تقريرٌ لسياساتٍ تأتلفُ وتختلف، فأراد أن يطمئنه على أنّه حين يكتب هذه المذكرات، لا يعني الدفاعَ عن خطّه السياسي، ولكنه يقرّر واقعاً، وقال بصدد ذلك بعد أن ذكر انتماءه السياسيَّ لحزب الأحرار الدستورين:

«لقد كنتُ معهم، وكنتُ محررهم، لكنّ هذا وذاك لم يمنعاني وأنا أكتبُ هذه المذكرات من أن أقفَ موقف المؤرّخ ما استطعتُ، غير متعصّبٍ

لرأي بذاته، محللاً المواقفَ المختلفة، مبيّناً وجهة النظر لكلِّ فريق، ذلك أني كنتُ ولا أزالُ أعتقدُ أنَّ الرأيَ قد ينطوي على جانب من الصحة، وجانب من الخطأ، وعلى جانبٍ من القوة، وجانب من الضعف، وأنّ تبيّن الحق في حاجةٍ إلى جهد عسير، وقد كان دأبي أن أبحثَ عن الحقِّ فأتبعه، أيّاً كانت النتائج التي تترتّب عليه، ولستُ أزعمُ أني اهتديتُ دائماً إلى ما أردتُ من هذا الحق، ولكنّي أستطيع أن أؤكد مطمئن الضمير أني كنت مُخلصاً للرأي الذي اقتنعتُ به، وإن جرَّ هذا الإخلاصُ من المضرّة، ما يحرص الكثيرون على اتقائه.

وهذا الموقف كفيلٌ بأن يبدّد ما قد يكون بالخاطر من شبهة، فهذه المذكرات لاتنصر رأياً على رأي، إنّما هي تصويرٌ للحوادث كما وقعت في الفترة التي تناولها الحديث، وتصوير كذلك لاتجاهات الرأي المختلفة، وقصدي من هذا التصوير أن يقفَ أبناء اليوم وأبناءُ الغد على ما كان قائماً في نفوس آبائهم، ممن كان لهم في الميدان السياسي، وفي الحياة العامة نشاطٌ قلَّ أو كثُر، وما كان لي من نشاطٍ في هذا الميدان بالتأييد والمعارضة، وقد تحرّيت جهد استطاعتي أن يكونَ هذا التصويرُ بالغاً الدقة، ليؤدي الغرضَ الذي قصدتُ إليه من وضع هذه المذكرات»[1].

والدكتور هيكل إنسانٌ يشتغل بالسياسة، وقد يكونُ لآرائه بين زملائه ما يجعله موضع الاستشارة، بل موضع الارتياح لما يبدي من الآراء، وإذا كان (حزبُ الأحرار) الذي ينتمي إليه قد وقع في أمورٍ لم تكن مجالَ اتفاق الأكثرية التي تنتمي لحزب الوفد، فإنّ محاميه الكبير قد يلجأ إلى تبرير مواقف لا شكَّ في خطئها الملموس، لأنَّ الحزب هو صاحبُ

---

(١) مذكرات في السياسة المصرية: ١/ ٥.

هذه المواقف، وهو الناطق بلسانه، ولا بد من أن يشرحَ وجهة نظره، وأن ينساق إلى ما يريدهُ الحزبُ من تأييد، وقع هذا كثيراً فيما حكاه الدكتور على مدى ما يقربُ من ألف صفحة في جزئين كبيرين.

كما أنّه في مواقف أخرى لم يكنْ راضياً عما صنعه رئيس الحزب، فاندفع إلى إعلان رأيه مخالفاً اتجاهه، وسجّلَ ذلك في (المذكرات) صريحاً غير مجمجم».

ونستشهد على الموقفين، موقف التأييد لما لا يراه المنطق مستساغاً، ولكنّه رأي الحزب، ومنطق المعارضة الصريحة لما رأى رئيس الحزب، ولم يوافق عليه الدكتور هيكل.

فمن موافقته على ما هو خطأٌ صريح ما أيّد به تعطيل الحياة النيابية ثلاث سنوات، وهو عمل عدوانيّ جريء، يرجعُ بالبلاد إلى حكم دكتاتوري غاشم، وقد وافق الدكتور هيكل عليه[1]، وبرّر وجودَه بأنَّ الوزارة ـ وزارة الأحرار الدستورين ـ ترجو أن تقضي خلال هذه السنوات على الرجل السياسي (الرئيس مصطفى النحاس زعيم الوفد)، وأن تُقرّ في البلاد الحكمَ النزيه، الذي يقوم من بعده نظام برلمانيٌّ في مثل نزاهته، فالوزارة لاتدّعي أنها صاحبة الكثرة في الانتخابات وهي لا تريدُ استفتاء الشعب، لأنَّ الشعب مضلَّلٌ، لا يمكنه أن يحكم على الأشياء حكماً سليماً».

هذا الكلام صدًى لتحكّم فردي، وهو منطقُ من يستهين بإرادة الشعب، ويعدُّ خصومه أصحاب دجلٍ وتمويه، والواقع المشهود أنّهم

(١) المذكرات: ١/ ٢٩٢.

قادة الأمة، ولهم كفاءتهم البارزة سياسياً وثقافياً ووطنياً، ولكنّه إذعان من هيكل ضد ما يوحيه الدستور، وضدّ رغبة الأكثرية ذات الوعي المشهود.

أما معارضته لبعض سياسة وزراء الحرب، فأستشهدُ له بما ذكره من استيائه من إقالة ثلاثة عشر مستشاراً بالاستئناف، إذ وجدتْ في أحكامهم مايزلزل كيانها السياسي، وهو عملٌ جريء رفضه هيكل، وذكر أنَّ جماعةً من أنصار الحزب كعدلي والهلباوي لم يوافقوا عليه، يقول هيكل[1]: «لقد اعتزمتُ ألا أدافع عن هذا الإجراء، ولا أنشر دفاعاً أيّاً كان مصدره، إلا أن يكون بلاغاً رسمياً لا حيلة لي في منعه، وبقيتُ عند عزمي، فلم أكتب في الموضوع كلمة، ولم أنشر شيئاً كتبه غيري، ولم أستجب لرجاءٍ في نشر شيءٍ».

وهكذا تمضي (المذكرات) في تفصيل أمور سياسية هامة لابسها الدكتور ملابسةَ المشارك بالرأي حيناً، وبالتنفيذ حيناً آخر، ونحن نعلم أنّ مذكرات السياسيين ليست تاريخاً، ولكنّها وجهات نظر، تصلحُ مادةً للتحليل والإفادة، كما قد تُقابل بالتخطئة والتصويب، فهي شهادةٌ تقدَّمُ لمحكمة التاريخ، وعلى القاضي أن يقبلها وأن يرفضها وفق ما يقرّره ميزانه الدقيق.

* * *

(١) المذكرات: ١/ ٢٩٨.

تراجم مصرية وغربية

هذا الكتابُ من أقوى ما كتب الدكتور هيكل في مراميه واتجاهاته، لأنّه لم يُردْ بحديث التراجم أن يكتب ملفات رسمية، تتضمّن تاريخ البلاد، والأعمال الرسمية محدّدة بزمانها، إنما أراد أن يُصوّر التاريخ نفسه في سير أعلامه الذين كان لهم أثرٌ في تقدّم البلاد، وكانت فلسفةُ هذه النظرة مسيطرةً عليه في كلّ سطر كتبه بهذه التراجم، فهو يتحدّث عن العصر نفسه حين يتحدّث عن مثل إسماعيل باشا، ومصطفى كامل، وعبد الخالق ثروت، بحيث يكون النسيج العام للتاريخ ذا خيوط تتّصل بسيرة من يتحدث عنه اتصالاً يرسل إشعاعه على الوضع العام سياسياً واجتماعياً وأدبيّاً.

هذا من ناحية، أمّا الناحية الأخرى، فإنَّ فكرة صحيحة رسخت في ذهن الدكتور هيكل هي أنَّ مصرَ هي التي حكمت نفسها في عُهُودها الماضية، وأنّ مؤرخي أوروبة هم الذين ابتدعوا تقسيم التاريخ المصري إلى عصرٍ فرعوني، فيوناني، فروماني، فعربيّ، فعثماني، ليُوهموا القرّاء أنَّ مصر لم تستقلّ بحكمها الأصيل إلا في العهد الفرعوني فحسب.

وفي سبيل تقرير هذه الحقيقة بدأ الدكتور بعصر البطالسة، فأثبت أنه من عهد بطليموس الثاني قد تحولت السياسة إلى يد مصر، فأصبحت مستقلّة بذاتها، حتى إنّ رومة كانت تعدّها العدوّ الأول.

وفي الحكم الروماني لم يحدثْ أدنى استقرارٍ في البلاد يُعلن عن انتمائها لرومة، بل كانت من الثورات المتتابعة حركاتُ التمرد والمناداة بالاستقلال، حتى جاء العرب، فطردوا الرومان، وآمنت مصرُ بالإسلام، فصارت ذاتَ استقلالٍ في ظلّه.

يقول الدكتور هيكل: وإذا كان صحيحاً أنَّ الحكام الذين تولّوا أمرَ مصر في عصور مختلفة لم يكونوا من أصل مصري صميم، فلن يُغيّر ذلك من خطأ المؤرخين وادعائهم خضوع مصر لأمم أجنبية عنها، إلا إذا اعتبرنا قيام ملك كملك الإنكليز على رأس أكبر إمبراطورية في الوقت الحاضر (مع أنه من أصل غير إنكليزي)[1] دليلاً على أن إنكلترة خاضعة للأمة التي يرجع إليها مليكها.

وليس هذا المثل الذي ضربناه بالفرد، فنابليون إمبراطور فرنسة كان من كورسيكة، أي كان أقربَ إلى الإيطالية منه إلى الفرنسية، وأكثرُ ملوك أوروبة الباقين على العرش اليوم من دماءٍ غير دماء الشعوب التي ملّكتهم عليها، وليست هذه الشعوب لذلك أقلَّ حرية واستقلالاً مما كانت مصر في أكثر العصور التي تعاقبت عليها، هذا ما قاله هيكل، وأظنّه كان يريد أن يقولَ: وليست مصر أقلّ حرية واستقلالاً حين ذاك من الشعوب التي يحكمها ملوك ليسوا من أصل البلاد. وقد تعرّض بإسهابٍ لتوضيح هذه النظرية بما يملك من حجج.

وفي الحكم الإسلامي بالذات كتب صفحات مشرقة تثبت أنّ الإسلام

---

(١) أصل الأسرة المالكة في بريطانية من بولندة، حتى إن أحد ملوكها كان يتكلّم الألمانية ولم يكن يحسن التكلّم بالإنكليزية. (الناشر)

هو الذي حكم، وأنّ المسلمين قد ارتضوا حكمه، لأنّ المؤمنين إخوة.

وتعرّض لعهد الولاة والطولونيين والإخشيديين والفاطميين والأيوبيّين والمماليك موضحاً أنَّ هؤلاء مسلمون، وقد جعلوا مصر وجهتهم، وامتزجت دماؤها بدمائهم، فليسوا غرباء عن البلاد في حدود المفهوم الصحيح للإسلام.

وما أشار إليه الدكتور هيكل من انحياز مؤرخي الغرب إلى وجهة الاستخفاف بالتاريخ المصري، نجد له شبيهاً آخر، هو ما ادّعوه من أنّ تاريخ مصر ينقسم إلى قسمين، العصر الإسلامي ويبدأ من عهد الفتح، والعصر الحديث ويبدأ من عهد الحملة الفرنسية، ومعنى ذلك عندهم أنَّ مصر ليست إسلامية بعد الحملة الفرنسية، وإنما انتقلت إلى تطوّر آخر يبعدها عن الإسلام، وهذا ما يحاولون ترسيخه في الأذهان، وقد ظهر عُوارهُ لدى كلّ عاقلٍ بأدنى تأمل، فمصرُ إسلاميةٌ تزيدُ كلَّ يوم إسلاماً، وما تزال كذلك حتى يقوم الناس لرب العالمين.

وفيما كتبته تحت عنوان (الكاتب الكبير) بعضُ حديثٍ عن كتاب (التراجم) لا أجدُ فائدةً في العودة إليه، ولكني أشير هنا إلى لفتاتٍ جميلة يذكرها هيكلُ أثناء الترجمة، فتكونُ ذات دلالة قوية على شخصية المترجم له، وقد تُغني في دلالتها اللامحة عن كتابة فصل طويل، فقد تحدّث مثلاً عن الشاعر الكبير (إسماعيل صبري) ووفّاه حقّه من التنويه بشاعريته الأصيلة، وكان ذلك أصلاً لمن كتبوا عن الشاعر بعد حديث هيكل، ولكنه أراد أن يتحدّث عن سرعة بديهته وحسن استنباطه الدقيق لفهم الأمور في مجالس القضاء فروى هذه الطرفة:

«اعترف أمامه - في المحكمة - متهم بجريمة قتل، فلما خلا مع

زملائه للمداولة، ورأى أنّ العقوبة هي الإعدام، ذكر لهم أنّه رغم الاعتراف يشكّ في ما قاله المعترف، لأنه لا يرى في سيماه شجاعةً تدفعه إلى القتل، ثم أمر بمن يُحضر المتهم ثانياً إلى غرفة المداولة، وجيء بالرجل الساذج، فقال له إسماعيل صبري: أتدري أنّ اعترافك هذا سيجعلنا نحكم عليك بالإعدام؟. فكان جواب الرجل، ولكنّ العُمدة لم يقلْ لي هذا، بل قال لي حين دفعَ لي الجنيهين إنّه سيُعفى عني، لأني كنتُ في السجن عند ارتكابِ الحادثة، وقد تبيّن أنّ الرجلَ فعلاً كان في السجن، فلم يكن له في الحادثة يد، وقضت المحكمة ببراءته».

وتلك النادرةُ الأليمة تصوّر فساد العُمد في الأرياف، وكيف يقومون بالجرائم، ثم ينسبونها إلى غير أصحابها بحيل غريبة، أو بإغراءٍ ماليّ يدفعهم إلى الاعتراف الكاذب جهلاً بما ينتظرهم من فادحِ القصاص.

وحديثه عن (عبد الخالق ثروت) ما زال جديداً، لأنّ هذا الزعيم الكبير لم يجد من يخصه بتحليلٍ سياسي يبيّن مواقفه التاريخية، وقد مضى على رحيله أكثرُ من سبعين عاماً، وما جاء في كتب التاريخ شذورٌ تتصل وتتقطع دون أن ترسم شخصية هذا السياسيّ المحنك بملامحها الساطعة، ويمكنُ أن يقال ذلك في غيره من بعضٍ من عناهم الكاتب الكبير بالتأريخ والتحليل.

أعود فأقول: إنَّ كتاب (تراجم مصرية وغربيّة) من أنفس ما كتب الدكتور هيكل، ويجب أن يكون مرجعاً لمن يكتب عن مصر في عصرها الحديث.

* * *

خاتمة

تحدثنا بالتفصيل عن أهم كتب الدكتور هيكل الإسلامية، وبالإجمال عن أهم كتبه العامة، وبقيت كتب لم أتحدث عنها، لأنها لا تفيد كثيراً في إعطاء المفهوم الإسلامي كما تصوّره هيكل، لبعدها عن طبيعة هذا الاتجاه.

وقد قدّمنا للقارئ في بداية هذا الفصل مسرداً خاصاً بمؤلفات الكاتب الكبير ليرجعَ من يريدُ الاستقصاء إلى هذه المؤلفات.

وأكرّر ثانياً أنَّ الهدف الأول من هذا الكتاب هو إيضاح الفكر الإسلامي في آثار الكاتب الكبير، وقد بذلت في ذلك جهد ما أستطيع.

الدكتور محمد رجب البيومي

الفَهرس

* * *